روح اليمن

الحُجَرية المال في موكب النضال

د. ثابت الأحمدي

الناشر/ وزارة الأوقاف والإرشاد
الجمهورية اليمنية

روح اليمـــن

الحُجَـرية
المـال في موكـب النضــال

د. ثابت الأحمدي

الناشـــــر
وزارة الأوقاف والإرشاد - الجمهورية اليمنية
٢٠٢١م

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتـــاب: روح اليمن الحجرية .. المال في موكب النضال
المؤلـــف: د. ثابت الأحمدي
الناشـــر: وزارة الأوقاف والإرشاد - الجمهورية اليمنية
المقـــاس: ١٧عرض ٢٤ ارتفاع
الإيـــداع: تم الإيداع في الهيئة العامة للكتاب - فرع مأرب
رقم الإيداع: لدى فرع الهيئة العامة للكتاب- م/ مأرب (١٩/ ٢٠٢١)
الطبعـــة: الأولى سبتمبر ٢٠٢١م
الحقـــوق: جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

إهــداء

إلى أرواح رموز النضال المالي من رواد الجيل الأول

أحمد عبده ناشر

جازم الحروي

عبدالغني مطهر

هايل سعيد أنعم

علي محمد سعيد أنعم

إلى الشباب اليمني الجديد من الجيل القادم الذين سينتصرون لنضالات آبائهم

وإلى عبدالجليل . .

المثقل بأحلام المستقبل

يا ركب اليمانيين المشردين
يا من أراكم تعبرون كل درب
وتعمرون كل أرض
وأرضكم خراب
يا أيها الركب الطويل
متى نعود؟
متى نعود؟

الشاعر / محمد أنعم غالب

لا وطنية بدون عقيدة، ولا عقيدة بدون التزام وانضباط.

محمد أحمد نعمان

تحية شكر وتقدير لمعالي وزير الأوقاف والإرشاد

الشيخ محمد عيضة شبيبة

لمبادرته الكريمة في رعاية هذه المادة، واعترافا لأهل الفضل بالفضل، نقول:

لولاه ما كانت لترى النور..

تقــديم

بقلم/ أحمد عبدالملك المقرمي

عندمـا طلـب منـي الدكتـور ثابـت الأحمـدي أن أكتـبَ تقديـما لهـذا الكتـاب سـعدتُ بهـذا الطلـب، وليـس منبـع سـعادتي أننـي سـآتي بـما لم تسـتطعه الأوائـل، وإنـما كان منبـع سُروري في أن أشـاركَ ولـو بإشـاراتٍ خاطفـة في الكتابـة عـن فـترة مـن الزمـن مثلـت أشـد مـا مـرت بـه اليمـن مـن محنـة وبـؤس وظلـم، يجـوز معهـا القـول: أنّ أبـا الاحـرار الشـهيد محمـد محمـود الزبـيري لخـص تلـك الحـال في بيـت فـذ، في إحـدى قصائـده:

جهل وأمراض وظلم فادح ومخافة ومجاعة وإمامُ

غـير أن تلـك الفـترة مـن الزمـن كان لهـا رجالهـا، رغـم السـجن الكبـير الـذي وُضِعـت فيـه اليمـن أرضـا وإنسـانا، حيـث سـوّرت الإمامـة الكهنوتيـة البـلادَ طـولا وعرضًـا بالظلـم والجهـل والفقـر، ورعايـة أسـباب المـرض، إضافـة إلى عسـاكر البطـش، وإطـلاق أيديهـم بمختلـف وسـائل التنكيـل:

فن من البطش والتنكيل مبتكر خليفة الله للأجيال أهداه

أتذكـرُ آخـرَ يـوم قضيتـه في «المعلامـة» في قريتـي «المقارمـة» مـن بـلاد الحجريـة، والفرحـة المختلطـة بحـزن. أمـا فرحـة فلأننـي سـأنزل عـدن التـي كانـت مهـوى أفئـدة كل أبنـاء الحجريـة، لقربهـا مـن عـدن التـي كانـت ملاذهـم: علـما وعمـلا وأمنـا وخروجـا مـن السـجن الكهنـوتي الكبـير. وأمـا حزنـا، فلأننـي سـأفارق

مراتعَ الطفولة والصبا، ولأول مرة سأفارق أمي وبعض أسرتي؛ لألحق بالبعض الآخر في عدن، حيث سبقني إليها بعض أبناء عمي لنعيش في كنف عمي الوحيد؛ لكن كان لابد من الرحيل إلى عدن للدراسة، وكان ذلك بعد قيام ثورة ٢٦ سبتمبر، ربما بثلاثة أشهر لا أكثر.

كنت يومها يتيمًا؛ مثلي مثلُ اليمن سواء بسواء، والفارق أنني سأنزل لأعيش في كنف عمي «عبدالله» الذي لم أشعر بسببه - بعد فضل الله - بيُتم أبدا، فيما كانت اليمنُ تعيشُ سنتها الأولى من الثورة؛ لكنها وهي في السنة الأولى للثورة يتكشف لها مدى يتمها الفظيع الذي عاشته خلال حكم الإمامة الكهنوتية إبان حكم بيت حميد الدين، أسلاف الكهنوتية الحوثية، حيث انكسرت أبوابُ السجن الكبير؛ ليتضح لمن كانوا فيه أن هناك عالمًا آخر من الناس، وأن هناك حياة أخرى يعيشها الناس غير حياة الظلم والجهل والبؤس والقمع والمرض.. يعيشون حياة بشرية، غير الحياة التي يراها الحكم الكهنوتي المتخلف.

مات أبي - رحمه الله- في جزيرة مدغشقر بسن الشباب، وهو يعمل في الميناء هناك مهاجرا/ مهجّرا. بُشّر بي وهو في عدن يستعد للرحيل القسري الذي فرضه الحكم الإماميُّ ببطشه وتخلفه على اليمنيين، ولقي الله هناك في السنة الأولى «هجرة».

ما أقوله عني وعن أبي هنا ليست قصتي كفرد؛ لكنها قصة من آلافِ القصص المتشابهة، التي فرض وقائعها، وصنع أحداثها الحكمُ الإماميُّ الجائر؛ ذلك الحكم الذي يستميت خلفاؤه اليوم من الحوثيين والكهنوت في استعادته وفرضه بقوة السلاح؛ ليعيد الأئمة الجدد تلك الوقائعَ والأحداث؛ بل ليعيدوا ظلامية الجهل، وصولة التنكيل، ونشر الحرمان من جديد.

لم يستكن اليمنيون ــ رغم كل ذلك البطش ــ لحكم الكهنوت البائد، كما أن اليمنيين اليوم - بما يعرفون من رصيد تاريخي مظلم عن الإمامة، وبما

يمتلكون هم من رصيد نضالي متميز ضد هذا البغي ــ فإنهم لا ولن يستكينوا لسلالة الكهنوت أن يعيدوا عجلة التاريخ إلى الوراء، فوطنية الشعب اليمني، برجاله ونسائه، بشبابه وشاباته، برجال أعماله وعماله، بفلاحيه ومزارعيه، وكل مكوناته يمتلكون إرادة البناء، ورصيد النضال، وروح التضحية والفداء، سواء بسواء مع أسلاف لهم سبقوهم في ميادين النضال المختلفة.

وإن يكن الدكتور ثابت الأحمدي قد وسم كتابه بعنوان: «روح اليمن.. الحجرية المال في موكب النضال» فإنه قد عرج مناضلا ببحثه وجهده وقلمه الذي نجده، في كتب أخرى له قد تموضع في جبهات متعددة، وميادين مختلفة باحثا في مقام الوطن والوطنية، حيث الوطن ضمير يسكن كل يمني، وسياسيا يبحث في الصراع الدولي وتأثيره على اليمن، ومفندا لأباطيل الهادوية وخرافة الحق الإلهي .. الخ ما جاد به من أبحاث ودراسات.

والدكتور الأحمدي ــ وهو يتحدث عن الحجرية ــ فإنه لا يقتصر عندها زمانا أو مكانا، ولكنه وهو يعرض نضالات رجالها، ومالها الذي كان خير زاد ومعين للثورة والثوار في كل المحطات النضالية التي تسبق ثورة الأحرار أو ثورة ٤٨، حيث كان مال المهاجر اليمني من الحجرية حاضرا في الميدان التنويري والتعليمي والاجتماعي، في النوادي والجمعيات الخيرية التي ترعى الطلاب وتحتضن الشباب في عدن، أو تنشئ المدارس، مثل كلية «بلقيس» اليمنية التي أنشئت في مدينة عدن بحي الشيخ عثمان، يوم أن كانت المدارس الحكومية في عدن، على عهد الاحتلال البريطاني، مغلقة أمام أبناء الشمال، وفي وجه أبناء الجنوب ممن كانوا من خارج عدن، وكان مال المهاجر اليمني من الحجرية في الحبشة وجيبوتي ومن كينيا، وبلاد أخرى حاضرًا هنا؛ وكما كان ذلك المال حاضرًا فاعلا في الميدان السياسي والإعلامي، فقد كان حاضرا مع تأسيس حزب الأحرار، وإنشاء الجمعية اليمانية الكبرى، وعند إعلان الاتحاد اليمني؛ كما كان حاضرا في الميدان الإعلامي والصحفي، وحاضرا في

ثورة ٤٨ وانقلاب ٥٥، ورافدا، داعما بغير حدود في ثورة ٢٦ سبتمبر؛ بتفويج آلاف الشباب للدفاع عن الثورة والجمهورية وفي مقارعة الطغيان الكهنوتي لبيت حميد الدين، أسلاف الكهنوتية الحوثية، عبر كل تلك المحطات النضالية الثورية.

لم يقف الدكتور الأحمدي - كما أشرت سابقا- عند زمان أو مكان، وإنما راح يستدعي المواقف التاريخية لليمنيين كافة، وإن ركز على الشخصيات المعافرية؛ خدمة موضوعية وبحثية لموضوع كتابه، كما بين مظالم وجور الإمامة الكهنوتية التي أطبقت بظلاميتها وتخلفها المقيت على اليمن كله.

ثم راح الدكتور ثابت الأحمدي يسلط الضوء، ويبين الدور الفاعل للمال الذي كان الوقود الفعال للثورة والثوار، ومقاومة الظلم والظالمين، ونظام الإمامة البائس.

وها هو الشعب اليمني أمام محنة جديدة مع الكهنوت، وها هي ميادين النضال المختلفة يعززها اليمنيون، بذلا للروح، ودعما بالمال، ونضالا متصلا، في كل مجال، وكما في الحديث الشريف: «كل ميسر لما خلق له» ، والكل مدعو لأن يتخندقَ في الميدان الذي تيسر له.

لقد كان الدكتور ثابت الأحمدي منصفا، وكان نبيها وحصيفا وهو ينوه، ويؤرخ لدور المهاجر اليمني عامة، ولرجال المال والأعمال المهاجرين خاصة، وما قدموه من جهد وبذل وتضحية، وكان المال خير سند ونصير للثورة والثوار.

المقدمة

نضـالُ اليمنيـين ضـد الإمامـة عريـقٌ وشـامل، فليـس مـن قريـة عـلى امتـداد ربـوعِ اليمـن كاملـة إلا ولهـا وقعـاتٌ ووقفـاتٌ مـع هـذا الكيـان العنصري المستبد منـذ زَمـن طويـل وإلى اليـوم.

نعـم.. إنهـا جسـمٌ غريـب، جماعـة في مجتمـع، كيـان متمايـز.. عـصي عـلى اليمننـة، وعـلى التعايـش مـع النـاس وفـق نظريـات وأصـول المواطنـة المتسـاوية والعَقـد الاجتماعـي.

ولأنهـا بهـذه العقليـة، وتلـك الثقافـة العتيقـة التـي تنـزعُ في جذورهـا البعيـدة إلى الثقافـة الفارسـية التي تقـدس بعـض السـلالات أو الأشـخاص؛ لكونهـم مـن سـلالة مـا فقـد رفـض اليمنيـون قاطبـة هـذه الثقافـة الدخيلـة، سـابقا، وهـم اليـوم أكثـر رفضـا مـع التدخـلات الخارجيـة المصاحبـة.

مـن بـين أكثـر مناطـق اليمـن نضـالا ومقاومـة منطقـة الحجريـة «المعافـر» في جنـوب الوطـن التي أدركـت بحدسـها الذكـي مـن وقت مبكـر في القـرن العشرين خطـر هـذا الكيـان، وقـد التهبـت بسـياطه اللاذعـة، فعملـت منـذ لحظاتهـا الأولى في عمـل شـبه مؤسـسي آنـذاك لمقاومـة هـذا «الـورم» الخبيـث الـذي ينهـش الجسـد اليمني مـن خـلال الجمعيـات الخيريـة والأنديـة الثقافيـة التي دعمـت منهـا حركـة الأحـرار، وهـم في المنـافي بـما تيسـر مـن المـال حتـى اشـتد عـود المقاومـة السياسـية المؤسسـية، وقـد كان النضـال فرديـا قبـل ذلـك، ووصلـت شرارة هـذا النضـال إلى داخـل القصـور الإماميـة نفسـها في صنعـاء.

كان رأس المـال «الحُجـري» هـو وقـود نضـال الأحـرار وزيت مصباحـه الذي ما خبـا؛ بـل الـذي أشـعل شـعلة السـادس والعشريـن مـن سـبتمبر ١٩٦٢م، متعهـدًا

وهـج تلـك الشـعلة بالدمـاء إلى جانـب المـال بعدهـا، عبدالرقيـب عبدالوهـاب نعمان، بطـل حـرب السـبعين أنموذجـا..

كان رأس المـال الحُجـري هـو وقـود «حـزب الأحـرار» و «الجمعيـة اليمانيـة الكـبرى» وصـولا إلى ثـورة الدسـتور ٤٨م، ومـا بعدهـا، كـما كان كذلـك في ١٩٥٥م، وظـل هـذا المال متدفقـا أيضـا في الاتحـاد اليمنـي منـذ تأسسـه في عـدن ثـم القاهـرة مطلـع الخمسـينيات، والاتحـاد هـو الكيـان الجديـد الـذي بعـث الأمـل في نفـوس الثـوار وقـد اكفهـر وجـه الزمـان والمكان في وجوههـم.

نتكلـم عـن دور رأس المـال هنـا الـذي ارتبطـت بـه بقيـة الأنشـطة الأخـرى، كالأنشـطة الثقافيـة والتعليميـة التـي كان أبنـاء الحجريـة أول مـن أسسـها بلمسـات عصريـة حديثـة، في الوقـت الـذي كان السـواد الحالـك يلـف مملكـة الظـلام بحنادسـه القاتمـة، فـلا مـدارس ولا معاهـد ولا جامعـات ولا صحـف ولا مجـلات؛ أمـا أبنـاء الحجريـة ومنـذ ثلاثينيـات القـرن المـاضي فقـد أسسـوا المـدارس بمناهجهـا الحديثـة، وأنشـأوا النـوادي الأدبيـة والثقافيـة بطابعهـا العـصري، وإن في حدهـا الأدنـى، فكانـت البـروق اللامعـة التـي أضـاءت الأرجاء في وقـت كان اليمنيـون في أمـس الحاجـة إلى بصيـص نـور أو جـذوة نـار تهـدي السـبيل.

في المثـل العـربي الشـائع الـذي ذكـره الجاحـظ في الحيـوان: «فـلانٌ أغبـى مـن ظلـف بغـل». والقصـة تكمـن في أن أغلـب ذوات الحوافـر تستشـعر بحوافرهـا وبحـدة إبصارهـا خطـر السـيول الجارفـة في اليـوم الماطـر، وخاصـة الوعـول التـي تعمـد إلى الابتعـاد عـن مصبـات السـيول ومجـاري الوديـان قبيـل هطـول الأمطـار، إلى المرتفعـات والآكام، عـدا البغـل فإنـه لا يستشـعر خطـر هـذه الكارثـة، فيظـل في مكانـه المنخفـض في الـوادي، فتجرفـه السـيول آخـر اليـوم فيـما تجـرف. ومـن هنـا ضُـرب المثـل بـكل غبـي جاهـل لا يستشـعر الخطـر قبـل وقوعـه، رغـم وجـود مؤشراتـه.

ولقـد كانـت الحجريـة «الوعـل» الذكـي الـذي استشـعر وأحـس بخطـر الإمامـة قبـل غيرهـا مـن المناطـق عـلى الأقـل في القـرن العشريـن، فعمـدت إلى تحصـين ذاتهـا بالوعـي والتعليـم مـن وقـت مبكـر، وهمـا عـدوا الإمامـة بطبيعـة الحـال. ذلـك أنـه أينـما وجـد

الوعي وانتشرت الثقافة فلا إمامة، ولا سلالية ولا أفضلية لأحد على أحد إلا بما كسبت أيدي الناس. (إن أكرمكم عند الله أتقاكم).

مع مطلع ثلاثينيات القرن الماضي عرفت الحجرية التعليم الحديث، جنبًا إلى جنب مع الأنشطة الثقافية والأدبية التي لم تكن معهودة في مختلف مناطق اليمن الشمالي حينها، من خلال بعض الطلائع الثقافية التي تأثرت بعدن، وعدن حاضرة من حواضر الشرق الأوسط المتقدمة حينها، حتى وقت متأخر، محاكين إياها في الأسلوب والطريقة والمنهج.. إلخ.

في مطلع الثلاثينيات أسس كل من: القاضي عبدالله عبدالإله الأغبري وأخوه عبدالقادر عبدالإله الأغبري، وأحمد محمد نعمان ومحمد أحمد حيدرة مدرستي: حيفان والتربة، وأدخلوا في هاتين المدرستين التعليم الحديث، فكان الطلاب يتعلمون الحساب والتاريخ والجغرافيا والتربية الوطنية والرياضية، وهي مواد لم تكن مألوفة في كتاتيب الإمام يحيى النادرة، لأن سياسته قائمة أساسا على التجهيل أيا كان نوعه، أما التعليم الحديث فهو أكثر عداوة له. وكانت هذه المدارس مدعومة من التجار المقيمين في عدن، وفي الحبشة والصومال وجيبوتي.

وأصبحت هاتان المدرستان حديث الناس ليس في الحجرية أو بقية نواحي تعز فحسب؛ بل لقد رفع أمير لواء تعز علي الوزير بتقارير خاصة عن هاتين المدرستين تحذره فيها عن خطورتهما؛ كونهما حد تعبيره «تفسد عقول الأطفال، وتخرجهما من عقائدهم». وآلَ الأمرُ بالنهاية إلى إغلاقهما بعد سنوات قليلة، وتحديدا عام ١٩٣٦م.

هذا توثيقٌ متأخر، أو قل ومضاتٌ متأخرة لأسفار وصور من ملاحم النضال الوطني، تتجلى عظمتها في «القيمة» لا في «الثمن». وقيمتها في صدق الشعور والانتماء لشرف القضية حين يتنازل العامل في حانوته أو الحمال في مينائه عن جزء من قوته الضروري الذي اكتسبه بحبات جبينه لصالح القضية الكبرى، ولو كان فلسا واحدا، لأنه قليل من قليل، خلافا لمن ينفق الكثير من الكثير؛ ذلك أن فلسا واحدا من العامل الكادح يساوي في «القيمة» مليونا من التاجر الغني. وقد قدمت الحجرية الكثير من الكثير، والقليل من القليل في وقت واحد معا.

(الحُجرية) هي التي عمّقت بعد ذلك وجداننا الوطني، بكلمات الفضول وأنغام أيوب، بمبادرة ذاتية ضمن اهتماماتهما الوطنية، ليس في الشطر الشمالي من الوطن آنذاك فحسب؛ بل في الجنوب قبل الشمال. معلنا بروح اليماني الأصيل:

املؤوا الدنيا ابتساماً وارفعوا في الشمس هاماً

مؤكدا بثقة صاحب الحق المقدس:

هذه الأرض التي سرنا على صهوات العز فيها وأتينا
وملكنا فوقها أقدارنا ونواصيها فشئنا وأبينا
أبدًا لن تنتهي فيها انتصاراتُنا إلا إذا نحنُ انتهينا

أحسستُ ـ وأنا أتملّى أسفار سبتمبر العظيم من سنوات عديدة ـ أنني ورفاقي من أحفاد ٢٦ سبتمبر مدينون كثيرًا لتلك المواقف التاريخية التي سَطّرها كلٌ من: أحمد عبده ناشر وعبدالقوي الخرباش وعبدالغني مطهر وجازم الحروي وآل نعمان وغيرهم الكثير من مختلف المناطق اليمن وفئاته الاجتماعية، وهي كثيرة، فقررتُ أن نتوقف أمام هذه اللوحات المبهرة، وفاء وتقديرًا لتلك الجهود، ولنرد بعض الفضل لأهل الفضل.

أخيرا.. شكري الخاص للأساتذة والأصدقاء الأعزاء الذي حضروا معي هنا في هذه المادة بصورة غير مباشرة: الأستاذ عبدالرحمن بجاش، والأستاذ العزي الصلوي، والرفيق الأستاذ عادل الأحمدي، والصديق العزيز الأستاذ لطفي نعمان. والشكر لله أولا، ثم لسبتمبر العظيم ثانيا. وهو المستعان.

د. ثابت الأحمدي

الرياض، يونيو 2021**م.**

المعافر.. الجغرافيا

في معجم البلدان للمقحفي:

المعافر: بفتحات، قبيلة مشهورة من كهلان. هم المعافر بن يعفر بن مالك بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن عمرو بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ.

وهؤلاء يمثلون جزءا كبيرا من القبائل الساكنة بالمنطقة المعروفة اليوم باسم: «الحُجَرية» في جنوب مدينة تعز.

وقد عرفت هذه القبيلة بتفوق أبنائها في مجال صناعة الثياب المعافرية التي اشتهرت بها في الأزمنة القديمة. ولا يزال أبناء المعافر يمتازون إلى اليوم بمقدرتهم الإنتاجية والتجارية في عموم مناطق اليمن وخارجها.

ومما يُذكر عن قبيلة المعافر أنها اشتركت في الفتوح الإسلامية، ولعب أبناؤها دورا بارزا في فتح مصر. وكانوا ــ كما ذكرهم المقريزي ــ عشرين ألفا. اشتهر منهم عدد من القادة ورجال الشريعة. نذكر منهم الزعيم عبدالرحمن المعافري الذي عرف بلقب «كاسر المُدى»، لِما كسر تحديا من مُدى الخليفة هشام بن عبدالملك الأموي..

وتجدر الإشارة إلى أن من أعمال الحجرية اليوم: القبيطة، ومنها الأغابرة والأعبوس والأثاور واليوسفيون والأعروق، ثم المقاطرة، ومنها المكابرة والهويشة والأكاحلة والزعازع والزعيمة والأشبوط والحميدة والنجيشة والزريقة، وغير ذلك من المناطق التي تنتمي إليها قطاعات كبيرة من القوى الفاعلة اليوم في المجتمع، سواء في مجالات الاقتصاد والتجارة،

أو المجـال الإداري والتعليمـي والصحـي، وكافـة مناحـي الحيـاة.[1]

تعـد الحُجَريَّـة أكبـر قضـاء فـي محافظـة تعـز، إذ يمتـد حدودهـا علـى أربـع محافظـات هـي إب وتعـز ولحـج والضالـع. والمديريـات التـي تتبـع هـذا القضـاء هـي: خديـر والصلـو وحيفـان وسـامع والشـمايتين والمواسـط وجبـل حبشـي والمعافـر والوازعيـة، وكلهـا تابعـة لمحافظـة تعـز، وهنـاك مديريتـا المقاطـرة والقبيطـة وتتبعـان حاليـاً محافظـة لحـج.

(1) ــ معجـم البلـدان، إبراهيـم أحمـد المقحفـي، دار الكلمـة للطباعـة والنشـر، صنعـاء، المؤسسـة الجامعية للدراسـات، بيروت، 2001م، 2/1568.

المعافر.. التاريخ

للحجرية «المعافر» إسهامات تاريخية مشرفة منذ بواكير فجر التاريخ الإسلامي، على أكثر من صعيد. فقد كانوا من رجالات الفتح الإسلامي، جنودا فاتحين، وكانوا من رجالات التنوير، علماء وفقهاء.

اختطت مع غيرها من القبائل اليمنية في الفسطاط، كما اختطت أيضا في أتريب وسخا ومنوف. وكانوا كذلك من رجالات الفتح في إقليم برقة من شمال افريقيا، وهو اليوم جزء من ليبيا.[1]

توارد اليمنيون إلى الأندلس على أكثر من مرحلة ومهمة، وقد كان أول اتصال اليمنيين بالأندلس حين أرسل موسى بن نصير أول حملة بحرية من المغرب إلى الأندلس بقيادة عياش بن أخيل الحميري الذي غزا جزيرة صقلية وعاد محملا بالغنائم؛ إذ مشى في البحر إلى صقلية، فأصاب مدينة يقال لها سرقوسة فغنمها وجميع ما بها وقفل سالماً غانماً.[2] وتلتها غزوات أخرى، كان قادتها وأكثر جيشها من اليمنيين الفاتحين، كعبدالله بن موسى بن نصير، وعبدالله بن حذيفة الأزدي، وحملة استطلاعية أخرى منفصلة عما سبقها سنة ٩١هـ، قوامها أربع سفن بقيادة طريف بن مالك المعافري اليمني، ونزل في إحدى الجزر المهجورة هناك في الأندلس،

(1) ــ انظر: دور اليمنيين السياسي في الأندلس، كارم محمود إسماعيل، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، كلية الدراسات العليا، 1991م، 6. وأيضا: فتوح مصر وأخبارها، أبو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله بن عبدالحكم، تقديم وتحقيق: محمد صبيح، 99. وانظر: دور اليمنيين السياسي في الأندلس، 8.

(2)ـ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذارى المراكشي، أبو عبدالله محمد بن محمد، تحقيق ومراجعة: ج. س. كولان، إ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت ــ لبنان، ط:3، 1983م، 42/1.

عرفت لاحقا باسم جزيرة طريف، نسبة إلى اسم القائد اليماني الذي نزلها بجنده لأول مرة، ثم عاد إلى موسى بن نصير، وعلى إثر هذه الحملة الاستطلاعية كانت غزوة طارق بن زيادة بجيشه البالغ سبعة آلاف مقاتل إلى هناك، فيهم العديد من القادة اليمنيين، وخمسة آلاف آخرين بقيادة طريف بن مالك المعافري مددا لمن قبله. وكان النصر في النهاية للجيش العربي الإسلامي بقيادة طارق بن زياد. وفي العام ٩٣هـ دخل الأندلس موسى بن نصير نفسه، على رأس جيش قوامه ثمانية عشر ألفا، معظمهم من القبائل اليمنية، وفيهم من القادة اليمنيين الكبار محمد بن أوس الأنصاري وعياش بن أخيل الحميري وحنش بن عبدالله السبئي وعلي بن رباح اللخمي وصبيح اللخمي.[1]

ومن القبائل اليمنية الأخرى هناك لخم وجذام، واستقروا في أكثر من مكان على امتداد البلاد، وأبناء قبيلة تجيب من مذحج، وكذا المعافر، ومن أشهر رجالات المعافر في هذه الفترة طريف بن مالك المعافري، وعبدالملك بن عامر المعافري، وأبو عبدالرحمن عبدالله بن يزيد المعافري، وثلاثتهم قادة عسكريون بارزون، وتعتبر قبيلة المعافر من أولى القبائل اليمنية التي وصلت إلى الأندلس، ثم استقرت، وساهمت إسهاما إيجابيا كبيرا، ولقد كان اسم الفقيه المحدث عبدالرحمن بن زياد بن أنعم المعافري، ت:١٦١هـ، يملأ آفاق الأندلس في زمانه.

ونتوقف هنا أمام أكبر شخصية معافرية «حجرية» في الأندلس ظلت حديث التاريخ إلى اليوم، بدهائه السياسي وبطولاته الحربية التي لعبها آنذاك.

(1)- انظر: جمهرة أنساب العرب، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد ابن حزم الأندلسي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط:1، 1983م، 430. وانظر أيضا: دور اليمنيين السياسي في الأندلس، كارم محمود إسماعيل يوسف، سابق، 40.

المنصور بن أبي عامر المعافري

هو محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أبي عامر المعافري «الحجرية اليوم بتعز» جدُّه من الداخلين الفاتحين الأوائل، وكان من الأبطال الشجعان والقادة الكبار الذين دخلوا الأندلس. وقصة المنصور في نجاحه من القصص التي تلفت الانتباه وتستدعي التأمل.

درس القرآن وعلوم الفقه والحساب والتفسير في الجزيرة الخضراء ــ دسكرة اليمنيين آنذاك ــ على يد والده، ثم انتقل إلى قرطبة، ودرس على يد مشائخها وعلمائها، وفيها بان تميزه وظهر نبوغه.

في مطلع شبابه افتتح مكتبًا بجوار قصر الخلافة لكتابة الشكاوى المرفوعة للخليفة الأموي، وذلك للإنفاق على تعليمه بقرطبة، وهذا العمل الصغير مكنه من الاتصال بأهل القصر من الخدم والحراس وغيرهم والذين نقلوا أخباره إلى سادة القصر خاصة السيدة «صبح البشكنسية» أم ولي العهد «هشام المؤيد» فعهدت إليه بعدة وظائف كتابية، وهذا مهد له السبيل لأن يتصل بالخليفة الحكم بن عبد الرحمن الذي أسند إليه مهمة الإشراف على أملاك ولي العهد «هشام» ثم إدارة الخزانة العامة ودار المواريث وغيرها من المناصب الهامة لما رأى منه عزمًا وطموحًا وتفانيًا في العمل، وكان عمر المنصور وقتها لم يتجاوز السابعة والعشرين، فلقب «بفتى الدولة».

ظل المنصور مضطلعًا بالمناصب الهامة والأعمال الجسيمة في الدولة، والقلوب حوله مؤتلفة، ولكنه قام بعمل كان هو الأعظم في هذه المرحلة من حياته؛ حيث استطاع ــ بقوة عزمه وسرعة تصرفه ــ أن يقضي على مؤامرة دُبرت من جانب بعض الصقالبة الموالي بالتعاون مع بعض

الأمويين؛ وكانت تهدف إلى قتل الخليفة الجديد «هشام المؤيد» وتعيين عمه «المغيرة» وذلك سنة ٣٦٦هـ، فحفظ بذلك دولة الخلافة من السقوط في دائرة الصراعات الداخلية التي عادة تعصف بأساس أي ملك ثابت مهما كانت قوته وثباته.

زادت مكانة المنصور بن أبي عامر في الأندلس بعد دوره الرائع في إنقاذ الخلافة من غائلة الصراعات والخلافات الداخلية، فقام الخليفة «هشام المؤيد» بتعيينه وزيرًا للدولة الأندلسية، وأصبحت مسؤوليات المنصور بن أبي عامر أعظم مما سبق بكثير، وهذا جعله يفكر مليًا في وضع الأندلس، ويحاول خدمة دولة الإسلام بها، وذلك بعد أن اتضح له عدة أمور، منها:

- أولًا: ضعف شخصية الخليفة الجديد «هشام المؤيد» وعدم صلاحيته لهذا المنصب الخطير، خاصة أنه صغير السن، مشتغل باللهو واللعب مع أقرانه.

- ثانيًا: زيادة الأخطار المحدقة بالمسلمين والآتية من ناحية الشمال؛ حيث اسبانيا النصرانية، خاصة بعد أن تنفسوا الصعداء بموت الخليفة القوي «عبد الرحمن الناصر» الذي خضد شوكتهم سنوات كثيرة.

- ثالثًا: ظهور بوادر لانقسامات داخلية خطيرة في دولة الإسلام بالأندلس؛ وذلك لزيادة العصبيات القبلية، وكثرة الطامعين من ولاة الأقاليم المترامية في الانعزال والاستقلال عن جسد الدولة الأم.

- رابعًا: فساد بعض رجال الحكم والوزارة أمثال «جعفر المصحفي» وولده «محمد» الذي كان يتولى رئاسة الشرطة، وفي عهدهما انتشر الفساد والفسق واختل الأمن واضطربت الأمور.

- خامسًا: زيادة نفوذ الصقالبة الموالي، وهم في الأصل عبيد عند الخليفة «الناصر» اشتراهم واصطنعهم في الحراسة والجند والجيش، وترقوا حتى صاروا قوة كبيرة يُخشى بأسُها، وقد زاد نفوذها داخل قصر الخلافة، حتى إنهم هموا بالانقلاب على الخليفة «المؤيد» عدة مرات.

كل هذه الأسباب دفعت «المنصور بن أبي عامر» لأن يمعن التفكير والترتيب في كيفية مواجهة كل هذه الأخطار المحدقة، وفي النهاية قرر أن يتحرك لمواجهة هذه الظروف العسيرة، وأن يأخذ زمام المبادرة بنفسه فقام بالخطوات الآتية:

١ــ قام بحجز الخليفة الصوري الصبي «هشام المؤيد» بقصره واستقل هو بتدبير الأمور وتولى لقب الحجابة - تلقب بالحاجب المنصور - وهذه الخطوة وإن كانت هي سبب نقمة كثير من الناس على المنصور إلا أنها في واقع الأمر كانت أهم خطوة؛ لأن غياب القائد الموجه والرأس المدبر يجعل كل الجهود تذهب هباءً منثورًا.

٢ــ بعد أن أصبح المنصور هو الحاكم الحقيقي للأندلس قام بعزل الوزير «جعفر المصحفي» وولده «محمد» وحاسبهما على أموالهما الطائلة من أين جاءت؟ وكيف تضخمت؟ وأسفر التحقيق عن كثير من الانحرافات لدى الوزير «المصحفي» الذي زج به في السجن وقضى فيه نحبه، وانتهى عصر الفساد معه.

٣ــ شعر الصقالبة الأشداء أن المنصور يعمل على سحق نفوذهم، فقرروا القيام بمبادرة وانقلاب سريع واجتمعوا على قائد لهم اسمه «درسي» ولكن «المنصور» اليقظ كان أسرع منهم، فقبض على قادة التمرد، وحاكمهم بشدة، وفرق شملهم، ووزعهم على الأقاليم حتى لا يعودوا للتجمع والتذمر.

٤ــ أما الطامعون من رجال الدولة وولاة الأقاليم البعيدة والعصبيات العربية القديمة والموروثة منذ أيام الفتح الأول، إضافة إلى التهديد الخارجي المتمثل في اسبانيا النصرانية المتربصة، والتي قامت بالفعل بالهجوم على ديار المسلمين وذلك في شهر رجب ٣٦٦هـ كلا الخطرين رأى «المنصور» أن يواجههما بأفضل الأساليب على الإطلاق، وهو إطلاق شرارة الحملات الجهادية، وبذلك يرد عادية الصليبيين، وفي نفس الوقت يشغل هؤلاء الطامعين من الولاة بقضية إسلامية، ويوجه طاقتهم لحرب أعداء الإسلام، وكانت هذه الحملات هي أنجح الحملات الجهادية التي قام بها مسلمو الأندلس ضد اسبانيا الصليبية طوال عمر دولة الإسلام في الأندلس على طول عمرها.

ومنذ اللحظات الأولى لإطلاق «المنصور بن أبي عامر» شرارة الحملات الجهادية ضد اسبانيا الصليبية سرت روحٌ جديدة في قلوب المسلمين، واشتعلت الحمية في قلوبهم، فتقاطر المجاهدون المتطوعون على الأندلس من كل مكان، وخاض «المنصور» أكثر من خمسين معركة ضد الصليبيين انتصر فيها جميعًا، ولم تنكس له راية أبدًا، حتى سرى الاعتقاد بين كل الناس؛ مسلمهم وكافرهم بأن «المنصور» مؤيد من السماء. والحق أن «المنصور» قد اعتمد في سياسته الجهادية على أسلوب الغزوات المستمرة المتعاقبة، والذي كان يرمي من خلاله إلى غاية بعيدة المدى لم يفكر فيها أحد من قبله من أمراء الأندلس، أو لم يقدروا عليها وهي سحق الممالك الاسبانية الصليبية سحقًا تامًا، وأن يفكك عراها التي بدأت في الالتحام والاستقواء، وبالتالي يجعل اسبانيا النصرانية كلها أرضًا مسلمة، وكانت معظم حروب المسلمين من قبل «المنصور» للدفاع ورد عادية النصارى، فلما جاء عهد «المنصور» كان هو البادئ بالغزو دائمًا، ولم يقبل

من النصارى ـ قط ـ صُلحًا أو مهادنة، ولم يقنع إلا بالنصر الكامل؛ لذلك فهو أحق الناس بوصف «المنتصر دائمًا» وبالقطع بعد «خالد بن الوليد» رضي الله عنه وجيل الصحابة الأفذاذ، ومن أشهر معارك «المنصور» ضد الصليبيين: معركة «شنت منكس»[1] ومعركة «برشلونة»[2] ومعركة «جليقية»[3] ومعركة «صخرة جربيرة».[4]

قال عنه بامطرف في الجامع إنه أحد الشجعان الدهاة. وعنه قال المستشرف «رينو»: جال غزاة المسلمين تحت راية المنصور في قشتالة وليون وتبارة وأراجون وكتلونية إلى أن وصلوا إلى غاشقونية وجبل فرنسا. وجاست خيله في أماكن لم يكن خفق فيها علم إسلامي من قبل، وسقطت في أيدي المسلمين مدينة «شنتياقب» من جليقية، وهي أقدس معهد مسيحي في أسبانيا.. وقد بنى مدينة الزاهرة بشرقي قرطبة على النهر الأعظم، وبنى قنطرة على النهر محاكيا الجسر الأكبر بقرطبة، وزاد في الجامع مثليه. وله شعر جيد..».[5]

وفاته

وافته المنية في ٢٧ رمضان سنة ٣٩٢هـ بمدينة «سالم»، ودفن بها بعد أن دفن معه غبار كل معاركه، وكان يحتفظ به طوال رحلته الجهادية الطويلة، ولم ير الأندلس حاكمًا مثل المنصور بن أبي عامر في خدمته لدينه وأمته، وسحقه لأعدائها، وتحقيقه أمنها ورخاءها، ويقال: إنه غزا أربع وستين غزوة، وكان يجمع تراب كل غزة في كيس صغير، ويحتفظ به. وقد كُتب

(1) ـ معركة جرت عام 371هـ، قادها الأمراء الأسبان ضد المنصور.

(2) ـ كانت سنة 375هـ، وقد استطاع المنصور اقتحام المدينة بجيشه الإسلامي.

(3) ـ موقعة في أقصى غرب اسبانيا، كانت ملجأ لملوك وأمراء «ليون» الخارجين عن طاعة المنصور.

(4) ـ كانت في 24 شعبان 390هـ، في مكان وعر يسمى جربيرة.

(5) ـ الجامع، بامطرف، 2/368.

هـذان البيتـان مـن الشـعر علـى شـاهد قبـره، وهمـا أدق وصـف لهـذا البطـل التاريخـي العظيـم:

آثــاره تُنبيك عن أخبـــاره حتـى كأنك بالعيـــان تـراهُ
تالله لا يأتي الزمـان بمثلــه أبدًا ولا يحمي الثغور سواه[1]

(1) ــ انظر فـي هـذا: المجـد والألـم مـا ذا يعنـي انتمائـي لليمـن، د. ثابـت الأحمـدي، مركـز نشـوان الحميري للدراسـات والإعـلام بالتعـاون مـع وزارة الإعـلام والثقافـة والسـياحة، ط:1، 2021، 432.

الهجرات اليمنية.. لمحة تاريخية

تُشكلُ الهجراتُ اليمنية عبر التاريخ واحدة من مفردات اليمن السياسية والاقتصادية والثقافية، منذ وقتٍ مبكرٍ وإلى اليوم.

وتتعدد الهجرة من حيث أسبابها وأهدافها ووجهاتها بين فترة وأخرى، إذ تكون بعض الهجرات اضطرارية، للبحث عن حياة أفضل، عقب كوارث طبيعية أو حروب، فيما تكون بعض الهجرات سياسية عسكرية، كما هو الشأن مع هجرة الفتوحات الإسلامية؛ حيث هاجر اليمنيون فاتحين، حاملين لواء الدعوة الإسلامية إلى مختلف الأصقاع. وقد شهدت اليمن هجرات متتالية، جماعية وشبه جماعية وفردية، ولا تزال كذلك إلى اليوم.

هجرة السد

اختلف المؤرخون في سنة انفجار سد مارب قبل الإسلام، وما أعقبه من هجرات جماعية متتالية إلى خارج اليمن، بحثا عن موطن جديد، للاستقرار، فاستوطن اليمنيون البلدان التي هاجروا إليها، وانساحوا فيها مع أهلها ولم يعودوا. والواقع أن السد قد تهدم أكثر من مرة، إلا أن التهدم الأخير كان بعد منتصف القرن السادس الميلادي، وتهدمه دليل إهمال وعبث الدولة القائمة التي لم تعد تهتم لأمره.

هجرات الفتوحات الإسلامية

كان اليمنيون عمودَ الدعوة الإسلامية التي جاء بها النبي محمد صلى الله عليه وسلم، والتي تزامنت فترتُها مع فترة انحدار حضاري لليمنيين، فوجدوا في الدعوة الجديدة ذواتهم التي مكنتهم من لعب دور سياسي وعسكري منذ بواكير الدعوة الأولى، وحتى نهاية عصر الفتوحات الإسلامية في العصر العباسي، فكانوا رأس حربة الفاتحين في كل من مصر وشمال افريقيا، وفي الشام، وفي بلاد فارس، بل وفي الأندلس.

وحين تم فتح تلك البلدان استقر اليمنيون فيها، حاملين لواء الدعوة الجديدة، ولم يعودوا، بل إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عقب معركة القادسية قد تعمد إسكان اليمنيين في شرق الجزيرة العربية، ليمثلوا لها سياجا عسكريا دفاعيا منيعا ضد أي احتمال لغزو فارسي، وقد رأى بطولاتهم العسكرية في معركة القادسية وما سبقها من المعارك مع الفرس، فكان اليمنيون هم الرهان الأكبر لمواجهة هذا الخطر الداهم؛ كونهم يملكون تقاليد عسكرية نظامية، توارثوها عن آبائهم، ولا تزال الإمبراطورية الحميرية قائمة، خلافا لغيرهم من إخوانهم العرب الذين كانوا يملكون الشجاعة الحربية؛ لكنهم يفتقرون للخبرة العسكرية الكافية التي تواجه جيشًا نظاميا، بخبرة عسكرية متوارثة، هو الجيش الفارسي؛ أي أنه لا يواجه الجنود النظاميين إلا جنود نظاميون، بنفس التكتيك والخبرة.

واستمرت الهجرات بعد ذلك متقطعة، شبه جماعية تارة، وفردية تارة أخرى، حتى كانت الدولة الرسولية التي استقرت فيها اليمن، وازدهرت أحوالها، وتكاد الهجرات اليمنية إلى الخارج تنعدم أثناءها.

الإمامة والتهجير

في العصر الحديث، ومنذ بداية الإمامة القاسمية تحديدا، عادت الهجرة اليمنية من جديد، بسبب سياسة الأئمة تجاه الناس؛ حيث تتعامل معهم كما لو أنها عصابة ولصوص، لا رجال دولة، وهيهات أن يكونَ كرادلة الإمامة وأتباعها رجال دولة، بأي حال من الأحوال. إنهم كيانٌ عنصري استعلائي لصوصي، يتعامل مع الشعب والأمة كما يتعامل البدو الرحل مع الماء والكلأ، في عبثية جارفة، تشبه عبثية قرود المزارع التي تلتهم المحصول كيفما اتفق. ومن شابه أباه فما ظلم.

بسطت الإمامة القاسمية نفوذها في بدايتها على اليمن، ومعه بسطت طغيانها واستبدادها القاهر على الناس، فكانت الكوارث المجتمعية سمة تلك الفترات، حروب وأوبئة وأمراض وفقر وجهل، وهجرات داخلية وخارجية، فقد الشعب خلالها هويته الحضارية وتاريخه، وقد أصبح أكبر همه البحث عن لقمة عيشٍ كريمةٍ يسد بها رمقه، أو مغادرة البلاد، لئلا يبطش به زبانية الإمام، كسياسة اتبعوها جميعا خلفا عن سلف، معتقدين أفضليتهم على الناس، وتميزهم العرقي بموجب مرسوم إلهي، وما الناس إلا تبع لهم حد زعمهم..!

وقد صور حقيقتهم الشاعر عبدالله البردوني في واحدة من قصائده، والتي قال فيها عن هذا الكيان العنصري البغيض:

من أين أبتدئ الحكاية؟ وأضيع في مد النهاية
وأعي نهايةَ دورها فتعود من بدء البداية
تصلُ الخطيئة بالخطيئة والجناية بالجناية
من عهد من وُلدوا بلا سببٍ وماتوا دون غاية
المسبلين على الذئاب البيض أجنحة الرعاية

الناسجيـن عـــروقهـم لمـواكـب الطاعون راية
من حوّلـوا المستنقعات الجائعات إلـى النفـايـة
أنصـــاف آلهـة مطوقـة بأسلحـة العنـــــاية
ووجـوههم كالـلافتـات علـى مواخيـر الغـواية
كـــانـوا ملوكـا ظلّهـم حرم ورقيتهـم حمـاية
فلحـــومنـا لخيـولهـم مرعـى وأعظمنـا سقاية
وبيـــــادر تعطيهـــم حبّـات أعيننـا جبـاية
والله والإسـلام فـي أبواقهـم بعـض الدعاية
أيـام كـانـت للذبـاب على الجراحات الوصـاية
أيام كـان السّـلُّ يأكلنـا وليـــس لنـا درايـة
وأبي يعلمنـــا الضَّـلال ويسـأل اللـه الهـداية

إن الفـارق بيـن الهجـرات اليمنيـة السـابقة للإمامـة أنهـا اختياريـة، لا قسـرية، أمـا الهجـرات اليمنيـة فـي عهـد الإمامـة فقـد قـد كانـت قسـرية، إجباريـة، تـارة تتبناهـا الإمامـة فـي عمليـة تهجيـر عمـدي للنـاس إلـى خـارج اليمـن، كمـا فعـل الإمـام المهـدي محمـد بـن المهـدي أحمـد المعـروف بصاحـب المواهـب بتهجيـر أبنـاء همـدان والضـلاع إلـى الصيـن والهنـد فـي مراكـب بحريـة، بعـد أن قتـل بعضـا منهـم، ومـن ثـم الاسـتحواذ علـى أموالهـم ومدخراتهـم، وتـارة تكـون بتصرفـات أتبـاع الإمامـة الجائـرة التـي تصـادر ممتلـكات النـاس وتعتقلهـم، فتضطرهـم إلـى الهجـرة والاغتـراب، بحثـا عـن الأمـان، كمـا سـنرى، وكمـا حصـل أيضـا مـع اليهـود اليمنييـن الذيـن هجرتهـم الإمامـة القاسـمية أكثـر مـن مـرة، سـواء هجـرات داخليـة أم خارجيـة، مـع أنهـم يمنيـون، ويمثلـون إضافـة نوعيـة علـى الصعيـد الاقتصـادي والفنـي، كمـا هـو معـروف عنهـم. وتتالـت هـذه الهجـرات، ولا تـزال متواصلـة إلـى اليـوم بسـبب صلـف وهمجيـة الإمامـة التـي لا يـروق لهـا إلا أن تعيـش لوحدهـا فقـط.

تهجير الإمامة لليهود

الطائفة اليهودية مكونٌ كبيرٌ وأصيلٌ من المكونات الاجتماعية والدينية في اليمن من قبل أن تعرف الهادوية الإمامية أرض اليمن، ومن قبل الإسلام كذلك. عاشوا مع إخوانهم المسلمين بروح الإخاء والمحبة والتسامح قرونا من الزمن حتى جاءت الهادوية الإرهابية ودخلت معهم في حروب، كما دخلت في حروب مع بقية الجماعات والفرق الأخرى. ومما يُحمد لليهود قديما وحديثا تمسكهم بهويتهم اليمنية، واعتزازهم باليمن وبحضارته وتاريخه كأي يمني، بصرف النظر عن عقديته، فيما الهادوية الإمامية تزردي اليمنَ حضارة وتاريخا ومجدًا سامقًا، ضاربًا بجذوره في أعماق التاريخ.

وقد ظلت الإمامة على الدوام ــ وخاصة الإمامة القاسمية ــ ترفع عقيرتها ضد ما تسميه مفاسد اليهود، وبين الفينة والأخرى تشردهم وتنكل بهم شرد تنكيل، تارة بإجلائهم عن مدينة صنعاء، وتارة بمصادرة أموالهم وجميع أملاكهم للإمام وحاشيته، بتهم باطلة في غالبها. علما بأن اليهود قد أسهموا من وقت مبكر إسهاما إيجابيا وخلاقا في الفنون الشعبية وفي التجارة والصياغة والصرافة وفي مختلف الجوانب، فكان لهم إسهام مدني وحضاري بديع، باعتبارهم أهل صنعة، وأهل سلم وتمدن، ومع هذا فقد ظلوا هدفا للإمامة بين الحين والحين ينكلون بهم ويشردونهم ويصادرون أموالهم. ناهيك عن المعاملة المزرية بحقهم في الظروف الطبيعية. ففي العام ١١٧٥هـ قام الإمام المهدي عباس باعتقال زعماء اليهود في صنعاء، وعذبهم وسَجَنهم، ومنعهم من لبس العمائم، وألزمهم بدفع نصفِ محصولاتهم، ثم صَادر أموالهم كاملة بعد ذلك، وأبطلَ عقد الذمة المبرم بينهم وبين الأئمة سَابقا، وحكم عليهم بالعُبودية بعد أن كانوا «ذميين/

مستأمنين». وقَدْ وجَّه بطردهم وإخراجِهم وهو في مرض الموت قبل وفاته. وكذلك فعل المهدي عبدالله، فاقتحم الكنيس اليهودي بصنعاء، فمزق كتبها وأحرقها ودمر مقتنياتها، وهدّم المبنى وأراق الخمر، وبنى مكانه مسجدَ الجلاء المعروف اليَوم هناك، مع أن مبنى الكنيس قد تم إنشاؤه من قبل الإسْلام، وقَدْ أجبرَ اليهود بين خِيَاري الإِسْلام أو الرَّحيل، فاختاروا الرَّحيل، فطردهم إلى موزع قريبًا من المخا.!

ورغم أن اليهود بدرجة رئيسية، ثم البانيان الهنود كانوا يمثلون دعامة اقتصادية كبيرة للبلاد، وإضافة نوعية على صعيد المهن والحرف، إلا أن الإمامة الهادوية لم تأبه لذلك، فقد نكلت بهم وشردتهم ونفتهم، ومع هذا الفعل تهاوت أسواق اقتصادية وغادر الكثير سوق العمل، مُلتحقين بالعُكفة، وقد كانوا عمالا أو فنيين لدى اليهود أو البانيان، باعتبار هؤلاء أرباب مهن، وحِرفٍ متميزة أيضا، في مختلف مدن اليمن. وهو ما لا يهم الإمامة أصلا، فهي لا تكترث للوطن ولا للمواطنين، بقدر ما تكترث لبقائها هي فقط على أي نحو كان.[1]

يهود آل سالم

هجّر الحوثيون خلال مسيرتهم في اليمن بعض الفئات المجتمعية، بدوافع طائفية ودينية وعرقية أيضا، كان أبرزها تهجير اليهود، وهم سكان أصليون عاشوا في مناطق مختلفة في اليمن. ففي أواخر العام ٢٠٠٦م أقدمت جماعة الحوثي على تهجير سبع أسر من يهود آل سالم من منازلهم في منطقتي «الحيد» و «غرير» بمديرية كتاف بمحافظة صعدة، بعد تهديدهم بالقتل؛

(1) ــ انظر: الإرهاب الحوثي سيرة ومسيرة، مشاهد من فصول الإرهاب الإمامي في اليمن، د. ثابت الأحمدي، مركز نشوان الحميري للدراسات والإعلام، ط:1، فبراير، 2021م، 89 فما بعدها.

حيث أشعرهم الحوثيون خطيًا بمغادرة قريتهم خلال عشرة أيام، وإن وجدوا واحدًا منهم في المنطقة بعد انقضاء هذه المدة فإنهم سيندمون جميعًا.[1]

وقد لجأت هذه الأسر المكونة من ٤٥ فردا ــ أغلبهم من النساء والأطفال ــ إلى مبنى المجمع الحكومي في صعدة، ومن ثم بتوجيهات من الرئيس علي عبدالله صالح حينها بنقلهم إلى حي سكني محمي بالعاصمة صنعاء.

أجبر الحوثيون يهودَ اليمن على ترك منازلهم ومزارعهم التي توارثوها أبا عن جد دون ذنب اقترفوه سوى أنهم يهود وغير مسلمين حد تصريح الحوثيين آنذاك.[2]

في ديسمبر٢٠٠٨م قَتلَ أحدُ المواطنين في ريدة بمحافظة عمران مواطنًا يهوديا يُدعى ماشا النهاري بتحريضٍ حوثي، في إطارِ عملية التحريض التي تقوم بها الجماعة، ومن ثم توالت هجرة اليهود بسرية عبر منظمات إلى أمريكا واسرائيل بعدما عجزت الدولة عن حمايتهم.

وبعد سيطرة الحوثيين على صنعاء، وتحديدا في مارس ٢٠١٦ هجّرت المليشيا الحوثية ١٧ شخصا من يهود اليمن إلى إسرائيل.[3]

وبالمناسبة، فإنّ الحوثيين كانوا وما يزالون يرفعون شعارًا تحريضيًا يستهدف اليهود، بمن فيهم يهود اليمن، وهو: الموت لأمريكا، الموت لإسرائيل، اللعنة على اليهود..إلخ.[4]

---

(1) ــ الحوثيون الظاهرة الحوثية دراسة منهجية شاملة، د. أحمد محمد الدغشي، مكتبة خالد بن الوليد، دار الكتب العلمية، د. ط، 27.

(2) ــ قال لي الشيخ عبدالعظيم العمري على هامش حوار صحفي سجلته معه ذات مرة ــ وعلى سبيل التفاخر ــ أنه من تبنى تهجير يهود آل سالم وتشريدهم من صعدة، وليس عبدالملك الحوثي الذي يدعي ذلك. والواقع أن كليهما قد فعلا ذلك.

(3) ــ هاجر هؤلاء الجدد وبصحبتهم أنفس المخطوطات التاريخية اليمنية التي لم تُحقق حتى الآن، ولم يعرف اليمنيون مضمونها، وظهر أحد اليهود اليمنيين وهو يستعرض مخطوطا كبيرا مع رئيس الوزراء الإسرائيلي نتنياهو. علما أنها ثاني علمية تهجير جماعي بعد عملية بساط الريح التي تمت آخر أربعينيات القرن الماضي وبداية الخمسينيات، وإن كانت أقل، وقد ذكرت رئيسة وزراء إسرائيل الأسبق جولدا مائير في مذكراتها أن عدد اليهود اليمنيين الذين وصلوا إلى إسرائيل بنهاية العام 1949م 48 ألف يهودي. انظر: اعترافات جولدا مائير، ترجمة: عزيز مي، مؤسسة دار التعاون للطبع والنشر، ص: 208.

(4) ــ همدان العليي، ورقة عمل خاصة.

وكما ذكرنا آنفًا، فاليهودُ مكونٌ اجتماعيٌ أصيلٌ في المجتمع اليمني منذ ما قبل الإسلام، ومن قبل ورود الغازي الرسي وأتباعه إلى اليمن، متعايشين مع عامة الناس بصورةٍ طبيعية، حتى كانت فتنةُ الرسي التي أحدثت القلاقلَ والفتن مع كل فئات المجتمع اليمني.

مارَسَ الحوثيون إرهابًا كبيرا ضد اليهود اليمنيين، على الرغم من سلمية اليهود اليمنيين، والتزامهم الكامل بالنظام والقانون، واحترامهم لعادات وتقاليد إخوانهم المسلمين، فنكلوا بهم وشردوهم من ديارهم وأراضيهم واستولوا عليها كاملا؛ ملاحقين إياهم بالشائعات بأنهم ينشرون الرذيلة في المجتمع، وأنهم يصنعون الخمور ويبيعونها للمسلمين، وينشرون الأفلام الإباحية، فيفسدون الشباب، إلى آخر هذه الاتهامات والشائعات الكيدية التي عُرف بها الحوثيون، فلاقت هذه الشائعات صمت وتساهل النظام السياسي، والأحزاب السياسية، وهو خطأ كبير وقعت فيه الدولة؛ إذ كان من المفترض أن تحميَ الدولة رعاياها، يهودًا كانوا أم مسلمين على حد سواء، وأن يتضامن الحقوقيون والساسة أيضا معهم، كمواطنين يمنيين. وقد انطلت هذه الشائعة على كثير من الناس، عامتهم وخاصّتهم، فلم يتعاطف صُنّاع الرأي العام مع اليهود في صعدة، ولا مع قضيتهم العادلة عدا القليل؛ نظرًا للنظرة القاصرة تجاه اليهود وحقهم في المواطنة، وربما تأثرًا بالشائعات الحوثية، فغادروا قُراهم تحت وطأة الإكراه بالسّلاح ودموعهم تتحدرُ من مآقيهم، رجالا ونساء وأطفالا وشيوخًا. غادر بعضهم إلى الخارج، فيما استقر البعضُ الآخرُ منهم في صنعاء، ينتظرون عودتهم إلى بيوتهم ومزارعهم؛ لكن ذلك ما لم يحدث حتى اليوم.[1]

(1) ــ انظر: حرب الشائعات.. الإمامة الهادوية في اليمن تاريخ من الافتراء، د. ثابت الأحمدي، مركز النهضة اليعربية، 35. وما تنبغي الإشارة إليه هنا هو أنه تربط المؤلف بالحاخام اليهودي بصنعاء يحيى يوسف علاقة صداقة جيدة. ولطالما تفاجأتُ بحب الحاخام لليمن، وهو يحكي لي عدة عروض وصلته من المنظمات اليهودية في أمريكا وإسرائيل بإيوائه في أي بلد يختاره بينما هو يرفض ذلك على الدوام، مفضلا اليمن على أمريكا وإسرائيل، كما أخبرني أن أبناءه يتعلمون في المدارس الحكومية الرسمية، ويدرسون مادتي التربية الإسلامية والقرآن الكريم، كبقية الأطفال؛ بل=

ووفقا للدكتورة أروى الخطابي: «اليهود في اليمن كانت لهم مساهمتهم في بناء الدولة، ولهم دور اقتصادي واضح منذ قديم الأزل؛ لكن إيران ومن خلال ذراعها في اليمن عمدت لتهجيرهم من أراضيهم ومواقعهم».

مضيفة: «في فترة من الفترات تم تهجير أكثر من خمسين ألف يهودي من اليمن، إلا إن كثيرًا من يهود اليمن ما زالوا متمسكين بالعادات والتقاليد اليمنية في المناطق كافة التي توجهوا إليها حول العالم»؛ مشيرة إلى أن ما يقوم به الحوثي مع اليهود هو تهجير قسري، وليس كما هي الحال في فترات سابقة؛ إذ يترك بعض اليهود اليمن من قرارة أنفسهم، وأن بعض يهود اليمن رفضوا أي عروض قدمت لهم من دول حول العالم للانتقال إليها، وفضلوا تراب أرض اليمن على بقية العالم، ليأتي الحوثي وينفذ رغبات إيران ويهجّر أحد مكونات اليمن الأصيلة بالقوة العسكرية والجرائم الجسدية والحبس وغيرها».[1]

وباستقراء تاريخ اليهود في اليمن على الأقل منذ العصر الإسلامي فما بعده لم نجدهم يوما ما يمثلون خطرا على الوطن أبدا، ولا على هويته؛ بل على العكس شكلوا أحد الروافد المهمة على الصعيد الاقتصادي والثقافي، ولعبوا دورًا إيجابيا كبيرًا في الحياة العامة، ولا أدلَّ على ذلك من حفاظهم على هويتهم اليمنية وعاداتهم وتقاليدهم حتى في داخل إسرائيل منذ هجرتهم إليها آخر أربعينيات القرن الماضي. ثم إن الفنون اليمنية اليهودية تملأ المدن والأرياف بزخارفها وتشكيلاتها ونُحوتها الخشبية على العملات والتحف والأواني، وأيضا الأغاني والألحان التي

=ويشجعهم على ذلك، وهو ينطق الشهادتين، ويقر بنبوة محمد صلى اللّه عليه وسلم، إلا أنه يرى نفسه غير ملزم باتباعه؛ ففي دين موسى وتوراته ما يغنيه عن دين محمد حد اعتقاده. والأهم أنه يدينُ احتلال الكيان الصهيوني لأرض فلسطين، ليس ذلك فحسب؛ بل ويتبرع للمسلمين في فلسطين ببعض المبالغ المالية، وقد رأيت بعض السندات التي أراني إياها الحاخام في منزله وفي مكتبته رأيته يحتفظ بنسخةٍ من القرآن الكريم بكل إجلال واحترام.

(1) ــ صحيفة الشرق الأوسط اللندنية، العدد: 14916 الاثنين - 1 صفر 1441 هـ - الموافق 30 سبتمبر 2019م.

تملأ الريف اليمني، فنون مستوحاة من الهوية التاريخية لليمن، ومن بيئته. ومشغولاتهم الفنية والحرفية مضرب المثل في الجودة والجمال والإتقان. وكانوا من أكثر الفئات الاجتماعية التي استطاعت الحفاظ على القراءة والكتابة والترجمة حين عمدت الإمامة إلى تجهيل الشعب ومحو هويته. وفي العقود الأخيرة ــ على الأقل من ثورة ٢٦ سبتمبر ٦٢ ــ لم نسمع عن خيانة وطنية واحدة من قبل اليهود اليمنيين، ولم نرَ يهوديًا يرفع العلم الإسرائيلي، أو حتى يتعاطف معهم في حروبهم تجاه الفلسطينيين، ومن اقتنع منهم بفكرة أرض الميعاد غادر البلاد نهائيا، واستوطن وطنه الجديد، فيما الحوثيون يمثلون في حد ذاتهم كتلة خيانات ومؤامرات ضد الوطن، مرتبطين روحيا بإيران، ومتنكرين لليمن تاريخا وحضارة.

سلفيو دماج

دَمّاج قرية تقع في وادٍ جنوب شرق مدينة صعدة بشمال اليمن، وهي تابعة إداريًا لمديرية الصفراء من محافظة صعدة باليمن، وتأتي شُهرة هذه البلدة بوجود مركز دار الحديث الذي أسسه الشيخ مقبل بن هادي الوادعي أحد مشايخ السلفية باليمن في العام ١٩٧٩م، عقب عودته/ إعادته من المملكة العربية السعودية، مشتغلا بالعلم، بعيدًا عن قضايا السياسة، وتوافد على مركزه الآلاف من الطلاب من الداخل والخارج، من جنسيات عدة، يعيشون حياة بسيطة، منكبين على الحلقات العلمية والتعبد، ومتشددين في الجوانب العقدية، محاربين الخرافات والشركيات وتقديس الأشخاص وقبور الصالحين.

ولأنهم بهذا الفكر الذي لا يروق للجماعة الحوثية، وأيضا لأنهم موالون للدولة، فقد اتخذ الحوثيون منهم موقفا حديًا، واعتبروهم عدوا لهم، لذا

قرروا ترحيلهم نهائيا، وإخلاء الساحة لهم وحدهم. فالحوثيون قد بدؤوا بالتنفيذ العملي لمشروعهم الذي خططوا له من زمن.

ووفقا لتقرير مجلس الأمن: «فرض الحوثيون حصارًا على قرية دماج، استمر من منتصف تشرين الأول: أكتوبر، حتى نهاية كانون الأول/ ديسمبر ٢٠١١م، وتسبب القتال في تعطيل الخدمات الاجتماعية الأساسية، مما ألحق ضررًا شديدًا بالسكان البالغ عددهم ١٢ ألف نسمة، وعلاوة على ذلك كان الحوثيون مصدرًا لعددٍ من التحديات؛ حيث فرضوا شروطا على المساعدات الإنسانية، مثل فرض قيود على التوظيف على تحركات الأفراد والإمدادات داخل صعدة، وأدت القيود المفروضة إلى تضييق مجالِ العملِ الإنساني أمام العديد من المنظماتِ، ونتيجة لذلك فإن بعضَ الوكالات الإنسانية انسحبت الآن تماما من محافظة صعدة».

وخلال الفترة المذكورة قاموا بقتل بعض طلبة العلم عن طريق القنص من الجبال، وكان من بين القتلى امرأة. ثم شنوا هجومًا في ٢٦ نوفمبر ٢٠١١م، بالقذائف المدفعية والهاون قتل فيه أكثر من ٢٠ قتيلا، من أهل السنة واستمر القصف والقنص والمواجهات إلى أن وصل عدد القتلى من أهل السنة حسب مصادرهم إلى ٧١ قتيلاً والجرحى إلى أكثر من ١٥٠ جريحًا، انتهى الحصار بعد توقيع الصلح بين الطرفين في ٢٢ ديسمبر ٢٠١١م.

ومع هذا وكعادة الحوثي في نقض العهود وخيانة العهود، فقد تكرر الحصار مرات عدة كان آخرها في أواخر أكتوبر ٢٠١٣م، وبصورة أشد من سابقه؛ حيث تجدد الحصار مع القصف بالأسلحة الثقيلة على دار الحديث بدماج من قبل مسلحي الحوثيين، فمنعوا من أراد الخروج من أجل العلاج؛ بل منعوا أهلَ دماج من الخروج لتأدية مناسك الحج في ذلك الموسم، وبرر الحوثيون حصارهم بأن الشيخ يحيى بن علي الحجوري قيم دار

الحديث بدماج يجهز لحربهم، بالاستعانة بقائد الحرس الخاص طارق محمد عبدالله صالح والحكومة السعودية..!! وهي تهمة سافرة، يعرفها الجميع؛ إذ لا علاقة للشيخ الحجوري بالحروب من أساسها، فحروبه لا تتجاوز بطون الكتب والمدونات.

في ١٥ يناير بدأ الآلاف من سلفيي دماج النزوحَ منها مع أسرهم وحوالي ١٢ ألف طالبا باتجاه العاصمة صنعاء وبعض المدن اليمنية، بعد اتفاق رعته الحكومة، ولا تزالُ جثث طلاب العلم مرمية في الأحراش، منها ٩٧ جثة لطلاب عرب وأجانب. بعدها سيطر الحوثيون بصورة نهائية على القرية الكبيرة، بما فيها، وقد نزح منها أهلها.

والواقع لقد اختلف السلفيون الدماجيون مع غيرهم، واختلف غيرهم معهم كثيرا في مسائل دينية أو علمية؛ لكن رغم هذا الاختلاف الطويل لم تنتج عنه عمليةُ عنفٍ واحدة من قبلهم، وإذا ما تمت مناقشتهم فإنهم أكثر احتراما للدليل العلمي. إنهم حدّيون مع غيرهم، ولكن في الأقوال لا في الأفعال، وما يميزهم عن غيرهم أنهم إذا عاهدوا أوفوا بعهودهم، ولا يتجرؤون على نقضها كما يفعل الحوثيون. علما أن الجدل الدائر معهم لا يعدو الجدل الكلامي فقط، ولم نسمع يوما ما أن دمّاجيا قطع الطريق أو حمل البندقية أو اعتدى عليه غيره. حتى حضورهم على المستوى الاجتماعي والثقافي كان ضعيفًا، فلم يكونوا مندمجين بغيرهم كثيرًا، ولذا عندما هاجمتهم المليشيات الحوثية لم يتفاعل معهم إلا القليل من النخبة الإعلامية والحقوقية؛ لأنهم لم يستطيعوا إيصال مظلوميتهم للرأي العام، ولم يكونوا مرتبطين بمنظمات حقوقية أو إنسانية، ولا صلة لهم بالأحزاب، ولا يزالون إلى اليوم كذلك. كل هذا لم يشفع لهم عند الحوثي أن يمارسوا معتقداتهم أو شعائرهم وفقا لما يعتقدونه. والأهم من هذا وذاك أنهم يؤمنون بولي الأمر المتغلب، على أي نحوٍ كان، ولا ينازعونه

الحكم، ويعتبرون ذلك من العقائد، وكان بوسع الحوثي أن يُزايدَ بهم أمام الرأي العام بأنه يقبل بالمناوئ له؛ لكنه لم يتحمل بقاء فكرة واحدة مغايرة لفكرته، ولن يكون بطبيعة الحال، فشرد بهم ونكل، كما فعل قبل ذلك مع اليهود، الأقلية الدينية «المجهرية» المعروفة بسلميتها وموادعتها.

الطائفة البهائية

لا تذكر المصادر التاريخية التي بين أيدينا السنوات الأولى لنشأة الطائفة البهائية في اليمن؛ لكنها تشير على سبيل الإجمال إلى تواجدهم في اليمن منذ القرن التاسع عشر الميلادي. حيث تواجدوا في المدن الساحلية لأول مرة، كالمخا وعدن والمكلا والحديدة ولحج، ومنها تناقلوا إلى بعض المدن اليمنية، مثل تعز وإب وصنعاء، وكانوا كغيرهم من الجماعات الأخرى، مواطنين يمنيين، يدينون بمعتقداتهم، كما يدين اليهود في صنعاء، والهندوس والمسيحيين واليهود أيضا في عدن، وكما تدين بقية الجماعات الأخرى بمذاهبها ومعتقداتها، وكلٌ يتقبل الآخر، ويتعايش معه برحابة صدر.

والبهائية جماعة سلمية، تكاد تكون مجهرية، لمحدودية منتسبيها وقلتهم، وهي مندمجة في المجتمع بصورة طبيعية، ولا يمتلكون برنامجا سياسيا مناوئا لأحد. تتوزع في كثير من الدول بطريقة عنقودية، ولا تمثل خطرا على أي دولة. ويكاد أغلب اليمنيين لم يسمع بهم في فترة النظام السابق كاملا.

في السنوات الأخيرة ضاقت بهم الجماعية الحوثية، كما ضاقوا بغيرهم، فشنت عليهم حملات إرهابية مادية ومعنوية متتالية، كعادة الحوثيين في التعامل مع من عداهم، ابتداءً من يهود آل سالم، فسلفيي دماج، فالأحزاب السياسية بعد ذلك، وانتهاء بالبهائيين.

ووفقًا لتقرير مجلس الأمن الدولي للعام ٢٠١٨م، الذي تحدث عن الانتهاكات الحوثية وإرهابها تجاه من عداها، قال: «منذ العام ٢٠١٦م حُرم الكثير من أتباع الديانة البهائية من حريتهم، أو ألقي القبض عليهم بطريقة لا تُراعي الإجراءات القانونية الواجبة. وفي عام ٢٠١٨م واصل الفريق التحقيق في حالات تتعلق بأتباع الديانة البهائية، ممن سُلبوا حريتهم، و/ أو اعتقلوا، و/ أو صودرت ممتلكاتهم، بطريقة لا تراعي الإجراءات الواجبة. ويشكل سلب حرية مجموعة من الأفراد أو مصادرة ممتلكاتهم بسبب أنشطتهم الدينية انتهاكا لقواعد حقوق الإنسان».[1]

لقد تم الزج برؤوس الجماعة البهائية إلى السجون، وتلفيق التهم الكاذبة عليهم، ثم محاكمتهم شكليا، من قبل قضاة يتبعون الجماعة، والحكم على رئيسهم حامد حيدرة بالإعدام تعزيرًا، بعد سجنه أكثر من أربع سنوات، وأيدته محكمة الاستئناف، بعد مصادرة كل أمواله، لا لجرم اقترفه هو وجماعته؛ إنما لأفكارهم ومعتقداتهم الخاصّة، وقد ظلوا في المعتقلات الحوثية شهورا طويلة، حتى تم إجبارهم على مغادرة الوطن كرهًا، بعد مفاوضات مكتب المفوضية السامية لحقوق الإنسان مع الحوثي بشأنهم، حيث اشترط الحوثيون على ستة أفراد من القيادة البهائية مغادرة البلاد أو البقاء في المعتقلات؛ ففضلوا مغادرة البلاد إلى إحدى الدول الأوروبية، لعدم احتمالهم لصنوف التعذيب في المعتقلات.[2]، وكم هو مؤلم على الإنسان مغادرة وطنه قسرا، ومفارقة أهله وديار.

إنه التوجس النفسي المتمكن من ذهنية الجماعة الإرهابية التي تسيء الظن عادة بكل مخالف لها، كما عبر عن ذلك إمامهم أحمد بن سليمان في القرن السادس الهجري، حيث يقول شعرًا:

(1) ــ التقرير النهائي لفريق الخبراء المعني باليمن في مجلس الأمن، على الرابط: https://undocs.org/ar/s/2020/70/Corr.1

(2) ــ هؤلاء القيادات هم: حامد بن حيدرة، ووليد عياش، وأكرم عياش، وكيفان قادري، وبديع اللّه سنائي، ووائل العريقي، نقلوا من سجن المخابرات الحوثية إلى مطار صنعاء مباشرة.

إذا ما خفتَ في بلـد عـــدوا فخالفْ ظنه في كــل فن
وخف من كنتَ تأمنه احتياطا وظن بمن تعادي شرّ ظن

إن هذين البيتين بقدر ما يحتويان على تكتيك سياسي قد يبدو بارعًا وذكيًا، بقدر ما يكشف أيضًا حجم الرهاب النفسي والخواف الذي يسكن هذه الجماعة نفسيًا من الداخل قديما وحديثا، فكل مُغاير أو معارض لهم هو في نظرهم عدو يجب استئصاله وإبعاده والقضاء عليه نهائيا. وهذا ما رأيناه في تصرفات سلالته اليوم.

تهجير شامل

ليس اليهود أو السلفيين أو البهائيين وحدهم من هجرهم الحوثيون من اليمن، بل ملايين اليمنيين هاجروا قسرا، تاركين بيوتهم وأموالهم إلى خارج الوطن، حفاظا على أمنهم الشخصي، وقد صادر الحوثيون ممتلكاتهم، ولاحقوهم إلى حيث يقيمون، ما اضطر الملايين من اليمنيين إلى الهجرة، سواء الهجرة الداخلية إلى مناطق لا تسيطر عليها الجماعة، أو إلى خارج الوطن، حيث يقيم كثير من اليمنيين في المملكة العربية السعودية ومصر وتركيا وماليزيا ودول شرق أفريقيا.

والأهم هنا أن أغلب من اضطرتهم الظروف للهجرة هم من النخبة اليمنية العالية، من الساسة والعلماء والأدباء والاقتصاديين ورجال الدولة الذين حُرمت من خدماتهم الدولة، وقد أهلتهم سنوات طويلة لخدمتها، فاستفادت منهم أغلب الدول التي هاجروا إليها، باعتبارهم نخبة نوعية وكوادر مؤهلة في مختلف المجالات.

الهجرة اليمنية في القرن العشرين

كل ما على الأرض كـاف بنيها لو قسمــوه بينهم بالتساوي

هكـذا يقـول الشـاعر الفيلسـوف أبـو العـلاء المعـري، في واحـدة مـن رؤيوياته التـي تكتنـز بهـا أشـعاره، وحاليـا يقـرر خبـراء السياسـة أنـه لا حقيقـة لمنطـق: شـعب فقيـر وشـعب غنـي، هنـاك فقط سـلطات ناجحـة وسـلطات فاشـلة. أي أن السـلطات الحاكمـة الفاشـلة تُلجـئ أبنـاء الشـعب للهجـرات والاغتـراب وأيضـا عبـور البحـار والمحيطـات بحثـا عـن الأمـان فيمـا عـرف باللجـوء الإنسـاني.

وتعتبـر الإمامـة فـي اليمـن الأنمـوذج السـيء للسـلطة الأسـوأ مـن بيـن كل السـلطات التـي قرأنـا عنهـا قديمـا وحديثـا، ولا نحتـاج لمزيـد مـن التأكيـد علـى هـذا، فبيـن يدينـا اليـوم الطبعـة الجديـدة مـن النسـخة الإماميـة الطاغيـة التـي نعيـش معهـا صـراع وجـود، كمـا عـاش آباؤنـا وأجدادنـا معهـم بالأمـس كذلـك.

هجرة أم تهجير؟

لا نحتـاجُ لمزيـد جهـد أو عنـاء، لنقـررَ أن مـا تـم فـي عصـر الإمامـة مـن تغريـب وتشـريد للنـاس هـو تهجيـرٌ قسـريٌ مـن بلادهـم التـي أصبحـوا فيهـا غربـاء، ديـار تتهـدم، مـزارع تُنهـب، ومتاجـر يتـم مصـادرة مـا فيهـا أو الاسـتحواذ علـى عائداتهـا تـارة باسـم الـزكاة، وتـارة باسـم الضرائـب، وتـارة باسـم الخمس، ومـا أكثـر الأسـماء التـي يرفعهـا النهابـة مـن أعـوان الإمـام مـن أجـل مزيـد مـن الاسـتحواذ والسـيطرة. لقـد ضاقـت البـلاد بأهلهـا، ولا مجـال للعيـش فيهـا،

فكانت الهجرة هي الملاذ الأخير على خطورتها للعيش بسلام، وإن في حد الأدنى.

يقول البردوني، مصورا حال الرعية أيام حكم الإمام يحيى: «كان الإمَام يحيى لا ينقطعُ عن قريةٍ أو منطقةٍ إلا مدة قَصيرة، فقد كان مأموروه وجنودُه يمسحونَ البلاد طُولا وعَرضًا، يتحسسُون ما يجري، ويتحصَّلون ثمرة ما ينبتُ وما يتحرك، يأتي المُخمّنُ عند بزوغ الثَّمرة، يليه القبَّاضُ عند حَصادها، يليه الكاشِفُ على القبَّاض، يَليه العَسكريُّ لتحصيلِ البَواقي، يتبعُه عَدَّادُ المواشي، ثم «مثمّر» الخضر والفواكه، فَيدوم اتصالُ الإمَام بالشَّعبِ على طِيلة العَام عن طَرِيْقِ المأمورين والعَساكر، ويزيد اتصَاله أعنف إذا نجمتْ أحداثٌ واحتدمَ شِجار..».[1]

وذكر أيضا في اليمن الجمهوري أن الإمَام يحيى كان يبيع عمالة العدين في إب بستمئة ريال، وكان يبيع عمالة كسمة بريمة بخمسمئة ريال. وهاتان المنطقتان من أخصب مناطق اليمن.

منذ مطلع القرن العشرين كانت عصابة بيت حميدالدين تواصل التسلل للسيطرة والاستحواذ، مدعومة ببريطانيا الإمبراطورية المسيطرة على أجزاء كبيرة من العالم حينها، وذلك في إطار مناوءة الخلافة العثمانية القائمة التي كانت على عداء كبير مع بريطانيا، فدعمت بريطانيا كثيرا من الحركات والجماعات في المنطقة العربية، التي رفعت شعار التحرر من «نير الطربوش» في إشارة إلى الحكم العثماني التركي، ومن هؤلاء يحيى حميدالدين في جنوب غرب الجزيرة العربية، وإن كانت قد اختلفت معه في بعض التفاصيل لاحقا، إلا أن هامش الخلاف كان يسيرا ومتواضعا مقارنة بمساحة الاتفاق، وقد وقفت معهم بريطانيا حتى بعد زوال مملكتهم وقيام الجمهورية اليمنية بثورة ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢م.

(1) ـ انظر: قضايا يمنية، عبدالله البردوني، ط:5، 96م، 62.

سلط الإمام يحيى نائبه على تعز الأمير علي بن عبدالله الوزير الذي كان يرى نفسه شريكا للإمام يحيى في حكمه، لا حاكما يؤدي مهمته الرسمية، وكان يطلق على عصاباته التي غزت هذه البلاد اسم «المجاهدين» كما يفعل الحوثي اليوم تماما. ومهمة هؤلاء «المجاهدين» السيطرة القسرية على أموال الناس وفرض الضرائب والإتاوات بغير حق، وجمعها للأمير، شريك الإمام، وبلغ بهؤلاء العصابة من السوء والقبح أن تنهب أبقارهم وأغنامهم ودجاجهم مع بيضها، وأيضا سمنهم وعسلهم وحبوبهم، مقاسمين الرعية لقمة العيش في بيوتهم التي ينزلون فيها ضيوفا إجباريين على مر السنة، بدون أدنى احترام أو مراعاة لحرمة البيوت؛ فهم عصابات همجية قادمة من جبال جرداء، لا تشبهها إلا أخلاقهم الصفيقة ومناظرهم البشعة التي يأنف ذوو الذوق السليم من النظر إليها.

غادر أبناء الحجرية بلادهم ودموعهم بين مآقيهم، فلا شيء أصعب على مغادرة الأهل والخلان، وترك الأوطان، بعضهم إلى عدن التي كانت واقعة تحت حكم الاحتلال البريطاني، والبعض الآخر إلى بلاد الحبشة وجيبوتي والصومال، بحثا عن حياة جديدة، ليس فيها «عساكر الحلالي» ولا عصابة الوزير.

وعلى مرارة الهجرة/ التهجير ومواجهتهم بظروف حياة جديدة وصعبة لم يكونوا يألفونها من قبل، ولا تمت لثقافتهم بصلة، إلا أنهم قد تطبعوا معها، وألفوها على صعوبتها، فاستوطنوا تلك البلاد، وتوزعوا على مختلف الأعمال الشاقة منها واليسيرة، وظلوا هناك سنوات طويلة؛ لكنهم لم ينسوا موطنهم الأصلي الذي فارقوه قسرا، ظلوا مشدودين وجدانيا لوطنهم الأم، ولم يعدموا حيلة في تأسيس أولى لبنات النضال اليمني في المهجر، من خلال عدة أنشطة قاموا بها على هامش أعمالهم هناك، فأسسوا الأندية الثقافية والجمعيات الخيرية، واهتموا بالتعليم، ودعموا الأحرار، متواصلين

بهم في الداخل والخارج، مقدمين في ذلك الغالي والرخيص من أجل تحرير الوطن من نير الطغيان الإمامي البغيض، كما سنرى بين ثنايا السطور القادمة.

ونورد هنا النص الكامل ـ على طوله ـ بقلم الأستاذ أحمد محمد نعمان الذي قدمه لولي العهد أحمد، من الخارج، بعد عزل علي الوزير عن تعز عام ١٩٣٧م، عن الهجرة وأسبابها، وعن أحوال اليمنيين في بلاد المهجر، بعنوان: «الأنة الأولى»؛ مؤملين على السيف أحمد إنصافهم من علي الوزير، سلفه السابق على تعز، إلا أن الحال من بعضه كما يُقال، فكلهم في الطغيان شرق.

الأنة الأولى

(يا صاحب السمو: يرفع المهاجرون من رعيتكم المخلصين إلى مسامعكم شكواهم، ويبثون ما في نفوسهم ويشرحون آلامهم غير هيابين ولا وجلين، معتقدين أنهم يخاطبون منقذاً عظيماً وزعيماً مخلصاً رحيماً.

يا صاحب السمو: إن أشد آلام الإنسان هو الألم الذي لا يستطيع أن يشكوه فما أشد آلام رعيتكم. وما أعجزهم عن الشكوى بل ما أخوفهم من الأنين والتوجع والتأوه. هؤلاء رعيتكم يناشدونكم الله العدل والإنصاف، فقد انقطع أملهم بعد الله إلا منكم وقلّ رجاؤهم إلا فيكم، فهل لكم أن تجعلوا حداً للمصائب النازلة بهم والمظالم التي أقضت مضاجعهم وسلبت راحتهم وأقلقت بالهم، وكانت هي أكبر عامل في تفضيلهم البلاد الأجنبية على وطنهم، والهجرة على الإقامة.

يا صاحب السمو: لقد صبرنا حتى سِئِمْنا الصبرَ، وسِئِمَنا الصبرُ نفسَه، وكادت الشعوب التي ملأنا أرصفتها وموانيها وشوارعها أن تجأر بالشكوى

وتصيح بملء فيها من عناء احتمالنا ومزاحمة سكانها.

عارٌ علينا أننا عار على هذا الزمان

يا صاحب السمو: لقد خجلنا من المقام في الغربة عالةً على الأجانب نتقلد أشق الأعمال وأتفهها، وبلادنا الغنية بثرواتها ومعادنها وخيراتها كانت أحق بجهودنا وكدّنا وتعبنا لو وجدنا مجالاً للعمل، فإلى متى ترضون لرعاياكم الاستمرار على هذه الحالة المحزنة ينتظرون فضلات الأمم ويستجدون الشعوب. نحن نناشدك الله إلا ما أصخت سمعك لشكوانا ولو كان فيها ما لا يُطاق سمعه ولا يُحتمل وقعه، فالمريض المشرف على الهلاك يضطر لِبث آلامه تفصيلاً لا إجمالاً حتى يتمكن طبيبه من العلاج.

يا صاحب السمو: لماذا نكتم على سموك المظالم التي فشي أمرها وعرفها الأجانب قبل الوطنيين ولمسوا الضعف في الأمة فأصبحوا يصفقون فرحاً ويتآمرون فيما بينهم على تخدير الأعصاب حتى يتمكنوا من تنفيذ أغراضهم -لا سمح الله-. فنحن حين نشكو آلامنا ونعلن حقيقة حالنا لسنا نقصد تشويه سمعة الحكومة والبلاد كما يقول من لا يهمهم أمر وطنهم ولا يرقبون إلاً ولا ذمةً في أمتهم. وها هي حكومات الدنيا أكتع أبتع على مرأى ومسمع منا، تقيم أحزاب المعارضة لها وتفرض لهم الرواتب ليبينوا خطأها ويناقشوها الحساب، كما أنها تعطي الحرية الكاملة للكُتاب وأصحاب الجرائد والصحف والتأليف أن يُصدِقُوها النصح وينشروا آلام الأمة وعيوب المجتمع والحكومة، ولم يُسمع من هذه الحكومات على اختلافها أنها اعتبرت تبيين أخطائها وغلطاتها تشويه سمعة.

يا صاحب السمو: رجاؤنا إليك ألا تتأثر بهذه الفكرة التي يروجها من لا خلاق لهم كي تظل فضائحهم ومظالمهم في طي الخفاء، فإنك أجدر أن تتخلق بخلق ذلك الخليفة الأول الذي قال لمن حوله: "من رأى منكم فيّ اعوجاجاً فليقومه" حتى قام أحد الحاضرين يقول له: "والله إن رأينا

فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا» فأقبل يصافحه ويثني عليه. إن الخوف من فكرة تشويه السمعة كانت وستكون وبالاً على المجتمع وستوقع الأمة في هاويةٍ سحيقة.

يا صاحب السمو: من يُنكر اليوم أن في البلاد مظالم يجب أن تزول، وفقراً مدقعاً يجب أن يعالج، وعطالة تملأ السهل والجبل في حاجة إلى مقاومة شديدة، وأمراضاً فاتكة في الأخلاق والنفوس، وثروة مهملة لا ينتفع بها أحد، واحتكاراً للمناصب والوظائف، وتكالباً على ذلك حتى غدا كبار الموظفين عبارة عن مديري شركات تجارية والوظائف سِلع تعرض للبيع والشراء.

من ينكر اليوم أن سيل الهجرة الجارف يجتاح الرجال والأطفال والشبان، وعصي الجوع تسوقهم وسوط الظلم يشردهم ويُنفرهم، فهل من عطف وإشفاق؟ هل هناك عدل يعود الناس إلى ظله ويتدثرون ببُرده أم الحالة لا تزال هي هي ورجال الظلم هم هم.

يا صاحب السمو: إننا لم نفضل الغربة على الإقامة عن رضىً واختيار، بل هاجرنا عن ضرورة شديدة كادت أن تودي بنا. أُغلقت في وجوهنا أبواب العدل وانسدت علينا طرق الإنصاف، وضُرِب بيننا وبين جلالة إمامنا وخليفة نبينا صلوات الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين بحجاب، ووقف لنا العمال والحكام وزبائنهم وأذنابهم بكل سبيل وقفة الذئاب أمام الشياه، ننظر ذات اليمين وذات الشمال فلا نرى غير ظلم وظلام، يأخذ أموالنا كل موظف ظالم بإحدى يديه ويسومنا العذاب باليد الأخرى يجيعنا ليشبع، ويذلنا ليعز، ويفقرنا ليغنى، ويسد في وجهنا مناهل العلم لتنفسح أمامه مناهج الظلم لذلك رأينا الخلاص بخروجنا من ديارنا وأبنائنا.

يا صاحب السمو: هذه كلمة موجزة عن أسباب الهجرة، ولا بد لنا من تفصيل الأسباب واحداً بعد واحد بحسب الترتيب، فما دام الظالمون لم

تأخذهم علينا شفقة ولا رحمة لا بد لنا من مناقشتهم الحساب وطرح قضيتنا بين يديكم حتى تقفوا على الحقائق ببراهينها الواضحة، وسنقتصر الآن على البعض ونفرد لما بقي رسائل متعاقبة، والمعول على سموكم بتحسين الحالة وتخفيف الويلات؛ وإليكم البيان :

السبب الأول للهجرة

الخطاط

بدأنا به لأنه أول بلية وأعظم رزية عرفناها وأُصبنا بها، وإن عُدِلَ عنه في الأيام الأخيرة. ولكن بعد خراب البصرة. فقد قتل الحمية وأمات الغيرة وداس الفضيلة، وأذل الناس وبغّض إليهم الحياة وحبب لهم الموت، واضطرهم للخروج من بلادهم جماعات ووحدانا.. ومن وقوفكم على معناه وحقيقته تشاركوننا في عِظَمِ النكبة به. قد تكون كلمة «الخِطاط» مجهولة لا يُعرف معناها ولا يوجد لها في اللغة العربية وقواميسها أصلاً، وإنما توجد في قاموس العمال. ولذلك يفهمها الرعية حق الفهم ويعرفونها تمام المعرفة فـ«الخِطاط» معناه: احتلال العسكر لبيوت الرعية وتكليفهم بخدمتهم، بل وتحمل نفقاتهم، هذا معنى الخِطاط بالإختصار وإليك التفصيل.

من المعروف أن المقرر للجندي كل يوم جزء ضئيل من النقد وحبوب الذرة أو الشعير أو غيرهما من سائر الحبوب الموجودة في المخازن والمدافن، فيحتفظ الجندي بالنقد ويذهب بالحَبِ إلى بيت الرعوي. وإن شئت فقل «إلى بيته». لأن الفلاح قد تخلى عنها وأصبح كالعبد هو وزوجته وأولاده، لا شغل لهم إلا خدمة العسكري والوقوف عند أوامره، تقبض الزوجة تلك الحبوب التي لا تسد رمق عصفور، فتوفرها مع طعام زوجها وأولادها. وتصرف غالب الوقت لتصفيتها وتنقيتها. وعرضها على

الشمس ليسهل طحنها ثم تذهب لجمع الحطب من رؤوس الجبال الشاهقة والأودية البعيدة وتعود لمباشرة العمل. وأما الزوج فهو يسعى في تحصيل الإدام من لحم وسمن ونحوهما. لأن العسكري محترم مقدس يجب أن يُكرم طول حياته فهو «مجاهد في سبيل الله» هكذا يُلقب. وإذا فرغت ربة البيت من تهيئة الطعام قُدِم لحضرة المجاهد وبخلال أكله ينصرف الزوجان للبِدار بالقهوة وما يلزم لها. هذا غذاء الجندي ومثله العشاء والفطور صباحاً.

وهكذا طرح الله البركة في تلك الحبوب، وأصبح العسكري يحمد الله ويدعو لولاة الأمر بالنصر والتمكين، ويتعجب من السر الإلهي والبركة العظيمة التي طرحها الله في تلك النفقة الضئيلة، بل إن الدهشة والعجب من البركة والمعجزة الخارقة عند العمال أنفسهم، وما عرفوا أن البركة في الرعوي وزوجته اللذين لا يعرفان للراحة طعماً ولا للحياة هناءة.

وهل تظنون -يا صاحب السمو- إن تفصيل الخِطاط وقف هنا. لا، لا. ولكن بعد كل هذا العبث والاستعباد إنه إذا حصل في بعض الأيام أقل عجز عند الفلاح وأهله عن توفير أسباب الراحة للعسكري والمبالغة في إكرامه نزل بهما ضرباً ورفساً وأهان كل واحد منهما أمام الآخر، بل أمام الله والعالم، وإذا استغاث أحدهم أو بكى اجتمع عليه بقية الجند المُخطِطين في البيوت الأخرى بجوار زميلهم فينهالون عليه بالضرب والسب والشتم، وإذا تدخل أحد جيران الفلاح أو أقاربه أصابه ما أصاب قريبه. وقد يتجرأ بعض الأشخاص بعرض هذا العبث على أحد العمال أو الموظفين فلا يسمع إلا سباً فاحشاً وكلاماً جارحاً «ما لأبوك والفضول يا ناصبي»، «هذا عسكري الإمام»، «الرعوي ما يصلحه إلا هذا»، «القبيلي ما لأمه إلا الهيانة«» وقد يُحَبس هذا الفضولي ويُهان، بسبب عطفه على أخيه وتبرمه من ضرب العسكري البطل والمجاهد في سبيل الله.

فيا صاحب السمو: هل تنتظرون لرعيتكم قياماً بعد كل هذه الأعمال. إننا بكل أسف نعلن لكم: أن العمال تعمدوا هذا الخِطاط تعمداً برغم استغنائهم عنه وعدم الحاجه إليه. فالثكنات من عهد الدولة العثمانية موجودة في عموم المراكز غير أن رجال تلك الدولة الأعجمية الأجنبية لم يتخذوا الجند لمحاربة الرعية، بل للدفاع عنهم والذود عن كيانهم. فكانوا ينشئون الثكنات في المراكز، ويعلمون الجند المحافظة على الكرامة وعزة النفس والترفع عن الدناءة، وعدم إظهار الفاقة والحاجة عند الفقراء والمعوزين وكانوا يوسعون عليهم بالإنفاق ويخصصون لهم خدماً ينتقلون معهم أينما ساروا وحيثما أقاموا. أما رجالكم الذين عولتم عليهم بإراحة الأمة والبر بها والشفقة عليها، فهم كما ترون بعكس الأعاجم على خط مستقيم، ولا حاجة لزيادة الشرح فالغرض ذِكرُ أسباب الهجرة والمصيبة التي أذلت الفلاح، وأماتت عواطفه وأطفأت شعوره وأفقدته إحساسه، وليعرف كيف مزق الموظفون شمل الشعب وسلطوا بعضه على بعض وأذلوا طائفة بيد الأخرى، وأجبروا الأخ على استباحة حرمة أخيه.

هذا هو السبب الأول للهجرة لقد ظلم الفلاح ظلماً بيناً وأبيح ماله ودمه وعرضه. ففزع إلى من بيدهم الأمر لإنصافه فزادوه خبالاً وأوسعوه نكالاً. ثم لجأ إلى جلالة الإمام يستغيث ويستنصر فوجد حوله زبائن الموظفين وأعوانهم يحولون بينه وبين الوصول إلى مولاه، بل إنهم يرجعونه إلى من ظلمه ليضاعف عذابه ونكاله. لذلك فضّل الهجرة كي يأمن على حياته التعسة الشقية «فالإنسان ضنين بحياته مهما كانت قيمتها» تاركاً وراءه أطفالاً ونساءً للطبيعة تقسو عليهم.

السبب الثاني
التنافيذ

وهذه المصيبة الثانية، والطامة الكبرى، والبلاء المستمر والنقمة الدائمة، وللترابط بينهما وبين الخِطاط ألحقناها به.

غير مجهول أنه لا يوجد إلى اليوم مواصلات تلفونية أو سلكية أو لا سلكية تربط المراكز بالقرى؛ غاية الأمر أن هناك الخط السلكي المعروف من عهد الدولة البائدة[1] هو الوحيد في البلاد ومُحتكَرٌ لكبار الموظفين فقط. ولما كان الأمر هكذا اتخذ الموظفون الجندَ واسطةً بينهم وبين الفلاحين وجعلوهم المواصلة الوحيدة، مع إن جلالة الإمام عَيَّن في كل مركز من مراكز اليمن بضع مئات من الجنود لحفظ الأمن والسهر على مصالح العباد، وحفظ النظام وصيانة الأرواح والأموال، لا للغرض الذي وضعه الموظفون. فكل ضريبة تُفرض على الرعوي يُنَفذ عليه العامل أو من يقوم مقامه عسكرياً أو اثنين أو ثلاثة، بحسب قلة المطلوب وكثرته. وهذا العسكري بمجرد استلامه أمر التنفيذ (وهو ورقة تُحرر بيده من الموظف المسئول عن إدارة تلك الجهة) يأمر العامل بقطع راتبه ونفقته اليومية لأنه سيكون ضيفاً على الفلاح، وفوق الضيافة له أجرة تُقدر بطول المسافة وقصرها يطلق عليها «مسافة»، ثم «الممسا» وهو عبارة عن ضريبة ليلية يدفعها الفلاح للجندي مدة إقامته عنده، وهذه الأجرة تتفاوت فإن كان عسكرياً لا صفة له فلها قدر معلوم، وإذا كان «عريفاً» أو «نقيباً» فتُضاعف، وإذا كان «قاضياً» أو «سيداً» فتكون أضعاف ذلك بكثير، وهكذا بحسب الرتبة والمنصب. كما إن الضيافة يعود اختيارها إلى العسكري لا إلى الفلاح.

هذه المهنة الوحيدة التي حمل الجندي لها السلاح، ثم إن تنفيذَه ليس

(1) يقصد: الدولة العثمانية «لطفي نعمان».

مقصوراً على طلب الضرائب فقط، بل أي أمر يريده العمال أو الحكام ونوابهم من الرعية لابد من إرسال العسكر فلا واسطة لهم غيرهم، فهم المواصلات الوحيدة حتى لو قصد أحد الموظفين عمارة بيته أو حراثة أرضه، أو أي عمل من الأعمال أُستدعي الرعية سخرة بواسطة العسكر.

هذا معنى التنفيذ وسنذكر آثاره..

يأخذ الجندي الأمر بيده ويؤم منزل الفلاح المنفذ عليه وإذا وصل إليه فلا تحية ولا استئذان ولا استئناس، بل وإن وجد الباب مفتوحاً دخل، وإن كان مغلقاً لا ينادي أحداً قط، بل يتناول بندقيته المعترَضَة على كتفه فيضرب بها الباب ويشقه نصفين أو يكسر قفله ويدخل، وقد يكون السكان نائمين أو مكشوفين، فللناس في بيوتهم حالات أما الأطفال فلا تسمع إلا صياحهم وعويلهم، لأن الجندي لا يكتفي بكسر الباب بل هناك سب وشتم بصوتٍ عالٍ غليظ من حين يدخل باب المنزل، وتلك هي تحيته لأخيه المسلم ومواطنه العربي. وتراه يطوف غرف المنزل إن كان فيه عدة غرف ليختار ما يوافقه ولا يمر على شيء أمام عينه فيعجبه إلا اختطفه، ثم لا يكاد يستقر حتى يطلب (مذبوح) و (قات وتتن وسمن) وهذه التحية الأخرى، يعني يريد كبشاً لا دجاجاً، ويريد القات (وهو الشجر المعروف الذي تعود الخاص والعام مضغه وقت الراحة حتى أنهم ليفضلونه على الزاد وينفقون فيه جل أموالهم، ويستغرقون في سبيله تركاتهم، ويبددون لأجله ثرواتهم).

يعدد الجندي هذه المطالب، والزوجان واقفان يتلقيان الأوامر والذعر مستولٍ عليهما، والخوف يساورهما ويملأ قلبيهما وعقليهما، ثم يتسللان للخروج هائمين في القرية يتطلبان الضيافة المفروضة المحتمة، لأن ما عندهما لا يوافق العسكري أو لعلهما لا يجدان شيئاً وقد يكونان باتا مع أولادهما على الطوى لشدة الفقر الذي عَمّ البلاد. عند حصولهما على

تلك المطالب يعودان إلى منزلهما للطبخ والخدمة وتهيئة الزاد للحاكم بأمره المطلق التصرف، والويل لهما إن تأخرا قليلاً أو نقص جزء من الأنواع المطلوبة. وإذا جاء وقت النوم لا يرضى بغير الغرفة الخاصة بالفلاح وأهله وأولاده، فيتنازلون عنها ويقصدون إصطبل البهائم بين أرواثها وأبوالها. إذ لا يمكن خروجهم من المنزل إلى بيوت الجيران. فقد يحتاج حضرة الجندي شيئاً في أثناء الليل أو يسهر ويحتاج من يسهر إلى جانبه (لتعميرة البوري وتبديل المداعة)، ولا يكاد الصبح يُسفر حتى يقوم الفلاح وزوجته لتهيئة الفطور لأن تأخيره يجلب عليهما مُرّ العذاب. كل هذه الضيافة مقدمة على إفهام الرعوي سبب التنفيذ عليه، بل لا يمكنه السؤال عن ذلك حتى ينتهي من الضيافة وإنما ينتظر من العسكري أن يبلغه، والعسكري كما ترى غير مفكر بالرجوع إلى المركز لأنه يكتسب من وراء بقائه الأكل اللذيذ والنوم الهنيء والفراش الوطيء والنقد الكثير. وإذا حاول الفلاح الذهاب إلى الحكومة تعرض له العسكري ومنعه عن ذلك لتتوفر له (المماسي). والحاصل أن طول الإقامة وقصرها يعود إلى نظر العسكري حتى إذا سئم الضيافة ومَلَّها أَذِن للفلاح بالذهاب إلى الحكومة وهو يستمر في المنزل يستخدم ربة البيت ويستعبدها، وهكذا يظل باقياً حتى يأتيه الفلاح بـ«الرفع» وهو ورقة تحرر بيده تقابل ما تحرر بيد العسكري، وتُشعِره بمغادرة المنزل. وإذا تحصل على «الرفع» عاد كئيباً حزيناً يهمه الخلاص من (المماسي) وأجرة المسافة وتقدير طولها وقصرها، والعسكري هو الحكم في الأمر إن شاء عدل وإن شاء جار، ولا يستطيع الفلاح أن يبدي رأياً أبداً، بل لو ظهر منه أقل خلاف بادره العسكري بالصفع على قفاه، وكَتَّفَه وساقه أمامه كالماشية، وهو لا يبدي ولا يعيد، أضيع من يتيم وأعجز من أرملة، حتى يتوسط (العريفة) أو (النقيب) في تقدير الأجرة، أو يرجع فض الخلاف إلى الموظف الذي بعث العسكري. ومن أعظم المصائب أنه قد يجتمع

على الشخص الواحد في آن واحد عدة «تنافيذ» فالعامل له حق التنفيذ، والحاكم مثله. والموظف في المالية. ومأمور البقية. والمشائخ. والعرائف وهكذا، ويُجبر المسكين على ضيافة كل واحد بحده، إذ لا يمكن اختلاط الجميع فإن أذواقهم تختلف، وشهياتهم تتفاوت فذاك يريد كبشاً، والآخر دجاجاً والثالث بيضاً.. إلخ؛ والفلاح مُلْزَمٌ بهذا كله، ومحتم عليه تسليم أجرة كل واحد من العسكر حسب القرار بذلك.

أفبعد هذه الأحوال والمظالم الغربية تعجبون؟

-يا صاحب السمو - من هجرة اليمنيين آلاف وعشرات الآلاف فما مقامهم وما حياتهم؟

مُلّ المقام فكم أعاشر أمةً أمرت بغير صلاحِها أمراؤها
ظلموا الرعيةَ واستجاروا كيدها وعُدوا مصالحها وهم أُجراؤها

إن الموظفين لم يجنوا على الأمة فقط بهذه الأساليب، بل جَنوا على الجندي أيضاً وأفسدوا أخلاقه، بإطلاقِ العنان له على افتراس أخيه، وإهانته وإذلاله. وأظهروه له بمظهر الوحش المفترس، والسبع الضاري. ولو عقلوا لرأوا أنهم يجنون على أنفسهم ويخربون بيوتهم بأيديهم، ويعرضون أمتهم للانقراض وحكومتهم للزوال.

السبب الثالث

فداحة الضرائب

و«الزكاة» أو «الواجبات» أو «العُشر» أو «حق بيت المال» ألفاظٌ مترادفة ومعناها واحد، وهو: سلب الرعية بلا شفقة ولا رحمة ولا إنصاف، ولا عدل، ولا قياس ولا تقدير.

تنوعت الأسماء والسَلبُ واحد

تضيق العبارة ويفنى البيان دون الكلام في هذا الموضوع طويل الذيول،

كثير الفروع؛ ولكن لا بد من الإشارة إلى ذلك بقدر ما يتسع له المقام.. لقد بات من المقرر أنه ليس للحكومة مورد من موارد المال إلاَّ من أرض الفلاح، ومزرعة الفلاح، وعناء الفلاح، وكَدِّ الفلاح فهو قُوتُها، وقوتها وكنزها ومتجرها الذي لا تعرف سواه. وها نحن نلفت نظر صاحب السمو إلى ما لقيه الفلاح المسكين جزاء إمداده لحكومته فوق ما سبق من نكباته.

يباشر الفلاح في أول العام لحراثة أرضه بِكده وجهده، تُعينه زوجته وأولاده ويشاركونه في تحمل الحر والبرد، ويصرفون الشهور في تنقية الحقول، وتصفيتها من الحشائش التي تضر بالزراعة، وتقليب الأرض وتعريضها للشمس والهواء، ونقل السماد إليها، وبذرها وتعهدها بالعناية والسهر على حفظها، حتى أنهم لا يرتاحون من العمل طيلة العام ولا يعرفون أقل مساعدة من أحد.

السبب الرابع
التخمين، والمخامنة

ثم لا يكاد يبدو صلاح الثمر حتى يعلن العمال تعيين المخامنة (الخراصين) ويبعثون دعوتهم إليهم، كي يوزعوهم بالقرى لتقدير حاصلات المزارع من الحبوب لتكون الزكاة عادلة لا تعدو الواجب شرعاً. فيتسابق الخراصون أو (المخامنة) وهم طائفة معينة من القضاة والفقهاء إلى أبواب الحكومة بالعمائم البيضاء والسِبَح الطويلة والأكمام الواسعة، كلٌ يدعي الأمانة وأنه أحق بالخرص من غيره لحرصه على حق بيت المال. فالمقرب المحبوب هو الحريص على توفير ذلك الحق. إن العامل ليدعو هؤلاء (المخامنة) إليه ويأخذ منهم العهود والمواثيق بعدم مجاوزة الحق، وأن يكون رائدهم العدل والإنصاف. ثم يحرر بيد كل واحد أمراً بالتخمين، ويعين بجانبه بعض العسكر ليتكسبوا جميعاً ويخترفوا في بيوت الفلاحين.

ولا يكاد يصل الخراص محل عمله حتى يلتف الناس حوله، كلٌ يدعوه إلى منزله ويواسيه ويتقرب إليه بالهدايا كي يرفق به ويعدل. وهو يتظاهر أمامهم بالورع والتقوى، والعدالة والإنصاف، ويمنيهم الأماني، ويهمس بأذن كل واحد بمفرده ويضرب له على صدره ويذم الحكومة بينهم وأنها ظالمة لا ترحم الرعوي، ولا تعطف عليه. وهكذا يضحك على عقول البُله المساكين ويستدر الرشوة بجميع جوارحه حتى إذا ملأ جِرابه أرسل نظره على المَزارع وسجل في دفتره مقداراً يَعرف أنه يرضي الموظف الذي عينه للتخمين، ويكسب به ثقته وحسن ظنه، لأنه يعرف أن الحكم بيده وليس للرعية شيء. ولذلك يهمه مراعاة جانبه فهو لا يسجل في دفتر التخمين العُشر بل يثبت الثلث، والثلثين، وقد يضع الحاصل جميعه باسم العُشر. ثم يرجع إلى العامل حاملاً دفتره المملوء ظلماً وجوراً، فينال رضاه ويكسب عطفه والمدح والثناء على أمانته وديانته. أما لو اقتصر والعياذ بالله على وضع العُشر أو الخمس أو النصف فليس جزاؤه إلا البصق في وجهه، واللعن والطرد وتسجيل اسمه خائناً وقليل دين، وساقطاً من نظر الحكومة. إذن فالمخمن (الخراص) مجبور على الظلم والجور، ومكلفٌ بذلك.

السبب الخامس

الكشاف، والكشف

ثم هل يكُتفى بما قدره الخراص! لا؛ ولكن يُبعث في إثره (الكاشف) ليكشف ما كتمه المخمن، والقصد إعاشته وفتح سبب له يُنتفع من ورائه، فإنه يتبع سنن من قبله شبراً بشبر. ويمثل الدور الذي مثّله سلفُه سواءٌ بسواء: ضيافة ثقيلة ورشوة مضاعفة، وقد يضع تقديراً لغلات الأرض أعظم من تقدير المخمن، لينال حظوةً عند الموظف الذي قلده هذا المنصب العظيم.

السبب السادس:
بيت المال، أو جهنم، أو مصب دماء الرعية

بعد التخمين، والكشف يأتي دور (بيت المال) فإن جميع الدفاتر التي تضم تقدير الخراصين والكشاف تُحول من العامل إليها ليقابلها الموظفون مع دفاتر العام الماضي فإن كانت تحتوي على أكثر مما قُدر في السنه السالفة عملوا بها. وإن احتوت على أقل من ذلك رفضوها وخاطبوا الرعية أن يسلموا ما دفعوه قبلاً. وإن ظهرت متساوية معها أجريت لها العملية الجراحية المعتادة فيضاف أو لاً ما لا بد منه احتياطاً، فربما أن يكون الخراصون تهاونوا بحق بيت المال. ويلي ذلك ضم العائد، وعشر العشر، وحق العلف، والرهينة. ثم يجري (التسعير) وهو تقدير قيمة الزكوات لأنها في الغالب لا تدفع عيناً بل تؤخذ قيمتها من الفلاح. فللمالية سعر مخصوص يختلف كثيراً عن سعر السوق. والفلاح مجبور على قيمة الزكاة نقداً بالسعر الذي تفرضه الحكومة. وهو ثلاثة أضعاف سعر السوق. والحاصل أن الرعوي يدفع قيمة حاصلات الأرض مضاعفاً، بل يضطر لبيع أرضه ومسكنه كي يوفي الزكاة ويغادر البلاد بتاتاً.

السبب السابع
(المشائخ) أو (العرائف) أو (العقال)
أو (السوسة التي تنخر في جسم الرعية)

عند انتهاء بيت المال من عملها وانقضاء مهمتها تسلم الدفاتر إلى العرائف الذين استخلصهم العمال لأنفسهم فيخاطبون بما اشتملت عليه تلك الدفاتر لأن ما سُجل فيها فهو القضاء المبرم الذي لا يجوز نقضه أبداً ولا تخفيفه بحال من الأحوال، حتى لو جرفت السيول الأرض، أو أصيبت الزراعة بآفة سماوية. وهنا العريفة لا بد له من إضافة نصيبه باسم

«غرامة» و«أجرة» ونحوهما. نعم، يتورع بعض العرائف عن القيام باستيفاء الضرائب لفداحتها الجائرة. ولكن سرعان ما يبرز للميدان من يرشح نفسه للقيام بهذا الأمر، والتشرف بخدمة العمال وإرضائهم بهلاك عشيرته وأهله، وما أكثر المتنافسين في هذا الأمر، وما أشد الخصام والتنازع على هذه الوظيفة وأمثالها. حتى إنك لترى الأخوين، أو القريبين وقد انقسما قسمين كلٌ يؤلب شرذمة من الناس حوله، ويضمهم إليه لاختياره عريفةً عليهم. ويبذلون في ذلك الرشوات ويذلون أنفسهم عند الموظفين كي يمكنوهم من امتصاص دم إخوانهم، وسلب البقية الباقية من أموالهم.

وهؤلاء العرائف ورثوا هذه الوظيفة من آبائهم، وأولئك تحصلوا عليها من الحكومات البائدة. حتى أصبحت «المشيخة» و«العيرفة" في نظرهم حقاً من الحقوق المقدسة المحترمة التي لا يجوز التنازل عنها وتركها والتخلي عنها مهما جلب ذلك الخراب والدمار على أنفسهم وقومهم. ولقد بلغ من حرصهم على هذه الوظيفة الجوفاء تعريض أنفسهم لكل تهديد وإزعاج وإهانة ممن فوقهم، ولكنهم لا يحسون ولا يشعرون، بل تجدهم يتبجحون بين الناس قائلين: "إن الإهانة وكسر الناموس بباب الحكومة شرف" ويتجلدون أمام أعدائهم. والأعداء بنظرهم قومهم وبنو عمومتهم، لأنهم سيشمتون بهم إذا تركوا المناصب، وربما خلفوهم فيها. والأنكى من هذا كله أن أكثر هؤلاء المشائخ يحرصون على طلب الوظيفة الفارغة التي ليس لها من ورائها خير أبداً، ويركضون وراءها ليل نهار، لا يهدأ لهم بال ولا يقر لهم قرار. ثم هم يتركون أراضي خصبة خلفها لهم آباؤهم ويدعونها للطبيعة تنسج عليها وتجعلها قيعاناً قاحلة لا تصلح للإنبات. فأين رجال الحكومة الحريصون على سعادة البلاد ورخائها، أن يغلقوا أبواب الوظائف في وجوه أمثال هؤلاء، ويوجهوهم إلى العمل في مزارعهم، التي لو أعملوا فيها المحراث لأطعمتهم نبات كل شيء وأدرت عليهم الرزق المضاعف.

هذا لا يُنتظر من رجال الحكومة يا صاحب السمو، بل إن العمال ليفخرون بموقف العرائف المحزن، وتناحرهم، ويسرهم الخلاف والانقسام. كأنما هؤلاء الذين بين أيديهم يتناحرون، ويتخاصمون ليسوا إخوانهم في الدين والوطنية، واللغة والجنس، بل الموظف يعد نفسه كمندوب سامي جاء من أوروبا إلى الشرق ليوسع شقة الخلاف، لا ليجمع الشمل ويوحد الكلمة. فإن من المحزن المبكي بذل هؤلاء الموظفين الجهد في توسيع النزاع، وإضرام نار الفتنة لغرض دنيء وهو احتكار الوظائف لمحسوبيهم، وجعلها وقفاً عليهم، بحجة أن أولئك لم يتفقوا. فإنهم عند اشتداد الخصام واحتدامه بين المغفلين البُلَه الذين يتنازعون على القرية يسكنها بضعة أشخاص وكأنها إمبراطورية عظيمة، يرفضونهم جميعاً ويدعون أحد الأقارب والأعوان فيقلد وظيفة العريفة بلا قيود ولا شرط.

السبب الثامن
المأمور

هذا اللقب يطلق على محاسب وأعوان الموظفين الكبار أو أقاربهم، ومن يمت إليهم بصلة، أو يتكسب لهم. ولقبهم به مؤقت وهو عند تقاضي الضرائب من الفلاحين بدلاً عن العرائف.

قد يكون المأمور مجرداً من كل خبرة وفهم ودراية، وليس فيه من الصفات المؤهلة له سوى انتماءه إلى العامل الفلاني أو القاضي الفلاني. أو من بيت زعطان وفلتان، بل وَصِفة أخرى وهي عدم الشفقة والرحمة في قلبه على عباد الله. وهذه لا بد أن تكون من أبرز صفاته يأخذ المأمور أمره بيده ويتوكل على الله وهو محاط بقلة من الجند. حتى إذا وصل إلى الجهة المعينة خَطَّطَ العسكر في بيوت الأهالي، وخَطَّطَ نفسه في بيت العريفة السابق، أو منافسه اللاحق يتلقى المعلومات ويتفرغ لقبض

الواجبات، إما شهراً وإما شهرين، على حسب الحاجة، وهو والجند هذه المدة كلها ضيوف على الأهالي. ثم يعودون إلى المركز وقد جمعوا لهم من الأجر و»المماسي» والرشوات ما يؤمِّنون به مستقبل عامهم. أما حق بيت المال فهي بنظر المأمور، وهو مخير بإيصالها، أو العبث بها، والتصرف فيها، وأخذ الشطر الأكبر منها وتسجيله في دفتر البقية بذمة الأهالي.

السبب التاسع
البقية أو المشكلة الخطيرة

هذه الكلمة تطلق على ما تدعي المالية بقاءه عند الفلاحين من الضرائب وهي مشكلة اليوم، ومعضلتها التي لم يُعرَف لها حل ولا نهاية، ولا شك أنها القضاء الأخير على الأمة والبلاد. والبقية الباقية أسلفنا آنفاً أن المأمور الذي يتقاضى الضرائب هو المسئول عنها وهو المفوض فيها، إن شاء سلمها تماماً إلى بيت المال. وإن شاء احتفظ لنفسه بجزء كبير منها وتقاسمه مع الموظفين الذين لا يجهلون أمره، وتوزيعها بحسب تكاليف كل موظف. وإذا قاسمهم استطاع أن يصيح بملء فمه: إن أكثر الضرائب لا تزال باقية بذمة الرعية.

ولا شك أن المأمور آمَن على نفسه المسئولية من جهتين، إحداهما أنه قد قاسم بالغنيمة الرجال المسئولين، حقيقة فلن يجرؤوا على التشديد عليه كي لا يفضحهم. الثانية أنه لا حُجة بيد الرعية تثبت أنهم أوفوا ما عليهم من الضرائب؛ فقد جرت العادة أن المأمورين يقبضون الزكوات والضرائب الحكومية من الرعية ولا يكتبون بيدهم شيئاً، بل يَعِدونهم بالسندات الرسمية من بيت المال، فإذا لم يثق الرعوي ولم يطمئن وامتنع من التسليم سلطوا عليه العسكر وأمروه بالبقاء في بيته حتى يسلم ما يطلبه المأمور. وهذا الوعد بالسند الرسمي ليس إلا مجرد وعد كاذب ومماطلة خائبة، والغرض

الصحيح ابتلاع حق بيت المال علاوة على الرشوات الباهظة والاختلاس الفظيع. وتسجيل ذلك بقيةً على الرعوي المسكين. وهكذا كل موظف، لا فرق بين كبير وصغير، يقبضون حقوق بيت المال أضعافاً مضاعفة، ويَعِدون الرعية بالسندات إلى وقت آخر. ثم يرفضون طلبهم ويتركونهم بضعة أسابيع، فيعيدون الكَرَّةَ عليهم بإيفاء الواجبات وتسليم البقية. ولا يزالون في كل عام يسجلون البقية. وكلما دفع الرعوي ضريبة هذا العام قيل له: إنها ستقطع من بقية العام الماضي. ولهذا لا تزال البقية عقدةً من العقد لم تُحل مشكلتها حتى الساعة. أو هل يُعقل أن الرعوي الذي ينقاد لكل شخص من هيئات الحكومة يتجاسر على تأجيل حق بيت المال. أو هل سيُسمح له ببقائه من عام إلى آخر وهو لم يتحصل على السماح له بحقه؛ إن هذا من العجب.

السبب العاشر
بقية الضرائب: المُخضر، والنحل،
وزكاة الباطن، والمواشي، والفطرة، والتجارة

هذه بقية الضرائب نجملها إجمالاً وهي تؤخذ باسم الزكاة وتُستوفى بواسطة المأمورين، أو العرائف، أو المالية رأساً، والعسكر من وراء ذلك فلهم دَخلٌ في كل شيء. وهذه الضرائب هي زكاة الخضروات ويسمونها (المُخضر) يعني الفواكه على اختلافها من نخل وعنب، وزيتون، ورمان، وتين، وقات وبن، وبسباس، وبصل، وثوم وكراث، وكلما نبت على وجه الأرض وهذه يقدرها الخراصون، والكشافون أيضاً بالصورة التي مضت في زكاة الزرع.

- (زكاة النحل) وهي باعتبار عدد من البيوت التي تأوي إليها النحل فتُخرج فيها العسل مختلف الألوان، وتسمى تلك البيوت (بالعيدان) على كل عود منها ضريبة مخصوصة.

- (زكاة الفطر) آخر يوم من رمضان ولا يحق للرعوي أن يدفع صدقة فطره لمنقطع حوله، أو لنفسه، وما أحوجها. بل لابد له من تسليم قيمتها إلى بيت المال، وهي تلزم كل فرد على نفسه وزوجته وأولاده، وكل من تلزمه نفقته.

- (زكاة البقر، والغنم، والجمال) على كل ماشية ضريبة خاصة يجب تسليمها في كل عام، وزكاة المواشي قصروها على هذه الثلاثة الأجناس فقط. أما الخيل والبغال، والحمير والكلاب والقطط والفئران وسائر الحشرات فقد أسقطوا عن الرعية زكاتها رحمة بهم، ولعلهم يدخرونها إلى وقت الشدة.

- (زكاة الباطن) يعني المال المكنوز مع الرعية. فقد جزموا وقرروا أنه لا يخلو إنسان قط من مال احتياطي، مكنوز. وكذلك لابد من أن يكون على زوجته حُلي، وعلى بناته وأطفاله. فهو مُكلَّف بدفع الزكاة على ذلك.

- (زكاة التجارة) وهي باعتبار قيمة العرض الموجود وزكاتها خارجة عما يؤخذ عليها في الجمارك من الضرائب الفادحة.

هذه الضرائب التي تُستوفى من الفلاح كل عام، بالصورة المذكورة والأساليب المتنوعة، والوسائل المنكرة، والفلاح لا حرفة له ولا عمل، ولا مورد، إلا من مزرعته التي كادت أن تصبح أثراً بعد عين لزهده عنها وإهماله لها، وهجرته إلى الخارج، ورجال الحكومة لا يعرفون غير الأخذ من الرعوي؛ أما أن يهيئوا له عملاً أو يريحوه العناء، فهذا ما لا يجوز عندهم أبداً.

وبعد كل هذه المظالم التي لا يعرف الرعية غيرها، ولا يمر عليهم شهر بدون مطالبة بها وإرسال العسكر عليهم باستمرار منذ عشرين عاماً هل يتوجه عليهم لوم أو عتاب بسبب الهجرة.

يا صاحب السمو: هذا قليلٌ من كثير والمعول عليكم بإزالة هذه

الأسباب التي شرحناها، وإذا عرفنا القضاء عليها رجعنا للعمل في بلادنا بجد ونشاط وهمة لا تعرف الملل، تحت ظل الراية المتوكلية التي لا نريد أن نعيش إلا تحتها ونموت تحتها، والله علينا شهيد ورقيب.

اليمنيون في المهجر[1]..)

لقد كانت هذه الصرخة أشبه بنفخة في رماد أو صرخة في واد، لم يأبه لها ولي العهد أحمد، ولم يعر الأمر اهتماما، وقد كان يتظاهر قبل ذلك بالدعوة إلى الإصلاح وانتقاد حكم والده، فتراكمت المظالم بعضها على بعض، الأمر الذي دفع الناس لموجات جديدة من الهجرة إلى خارج البلاد، ومعها بدؤوا يفكرون بأساليب جديدة للتخلص من هذا الطغيان الأرعن الذي استبد بهم.

(1) ـ انظر: لمحات من تاريخ حركة الأحرار اليمنيين، علي محمد عبده، 1/128.

مهن شاقة ومعاناة مضاعفة

تبدأ معاناة المهاجر عن وطنه من لحظات الفراق الأولى لأهله وداره، ومعلوم مدى تشبث النفس بالأرض ومراتع الصبا، تليها معاناة الطريق، وخاصة في الزمن القديم حين كانت الهجرة أو الغربة تمثل انقطاعا كليا أو شبه كلي عن الأهل والدار، قبل ظهور وسائل الاتصال والمواصلات، وحين كانت الطريق مملوءة بالمخاطر المتنوعة، سواء طريق البر أم طريق البحر، كان بعضُ المسافرين يتعرض لافتراس الوحوش حينا، ولقطاع الطرق حينا آخر، لذا عادة ما يسيرون جماعات، غير منفردين، ومن نجا من هذا الخطر بدأ بالتفكير في خطر البحر، حين كانت المراكب تغرق فيه بما عليها، وتلقي بالغرقى إلى الشواطئ جثثا هامدة، وربما تعرضوا لخطر القرصنة أيضا، أضف إلى ذلك أن بعض الفارين من بطش الإمام كانوا يتسللون إلى بعض السفن سرا، أو يحشرون أنفسهم في البضائع والحمولات دون أن يعرف قباطنة هذه السفن، ويبقى طوال الرحلة قيد وساوسه وتكهناته وآلامه النفسية.

وفي بلد المهجر تمثل اللغة المختلفة وأيضا الثقافة أحد أوجه المعاناة، ناهيك عن عصابات الليل ولصوص المدن الذين يتربصون بالغرباء والمنقطعين. أضف إلى ذلك الشروط القاسية والتعامل الفظ الذي يتعامل به رجال الأعمال، مستغلين الظروف الإنسانية لهؤلاء المهاجرين والمغتربين، في زمن لم تكن قد سنت القوانين أو اللوائح التي تنظم شؤون الهجرة والاغتراب، واستغلال المغترب حالة مستمرة يعاني منها اليمنيون إلى اليوم، مع وجود سفارات وقنصليات ومنظمات حقوقية تساعده على استرداد بعض حقوقه، أما في السابق فلم يكن للمهاجر لا سفارة أو قنصلية يلجأ إليها، ولم يكن له حتى جواز سفر يثبت هويته، فكانت رحلة مجهولة

إلى عالم مجهول من شخص مجهول؛ لهذا انقطعت أخبار بعض من هؤلاء المهاجرين، وأصبحوا أثرا بعد عين، وقد لقوا حتفهم في ظروف غامضة؛ إما غرقا بين لجج البحار، أو تائهين في قيظ الصحارى، وبعضهم استضافته سجون بلاد المهجر حتى لقي حتفه فيها وحيدا غريبا، لا يفهم من بجانبه، ولا يفهمه في ظروف إنسانية بئيسة، ولا يجد من يدافع عنه.

ثمة معاناة نفسية أخرى حين وجدوا أنفسهم غير مؤهلين علميا، ولا يحملون أية شهادات علمية في أي مجال من بلادهم التي هاجروا منها، خاصة المهاجرين إلى الهند والصين ودول شرق آسيا، في الوقت الذي يملك غيرهم المؤهلات الدراسية والشهادات العلمية، فكانت عمالتهم تقليدية في المجالات الخدمية، كالزراعة والحدادة والنقل والبناء والمناجم والسفن وغيرها..

ولعل المأساة الكبرى التي طالت اليمنيين في الحبشة هي عملية التجنيد القسري والإجباري التي طالتهم لدعم المجهود الحربي للقوات الإيطالية؛ الأمر الذي أدى بالتالي إلى هروب مجاميع كبيرة منهم عن طريق البر إلى الأقاليم الشرقية من السودان، وإن كانت عملية الهروب الجماعي هذه قد خلقت لهم فيما بعد مشاكل كثيرة؛ حيث استغل الإنجليز بعض هؤلاء، كما سجنوا البعض الآخر منهم، ممن ثبت للسلطات البريطانية بأنهم قد حاربوا فعلا إلى جانب الإيطاليين.[1]

وهذا لا يعني أنهم توقفوا عند حدود خبراتهم المحدودة التي أتوا بها؛ بل لقد طوروا كثيرا منهم من خبراتهم ومعارفهم، وبعضهم التحق بالتعليم هناك، وحذق أكثر من لغة، كما حذق أكثر من مهنة، حتى أصبحوا بعد ذلك تجارا كبارا ورجال أعمال ومثقفين وساسة.

(1) ــ الهجرات اليمنية عبر التاريخ إلى منطقة شرق أفريقيا، العزي الصلوي، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، 60

ومع كل هذه العذابات والمخاطر والظروف القاسية التي تلف اليمني من كل اتجاه إلا أنها جميعا أرحم من طغيان الإمام وجلاوزته الذين يتلذذون بإهانة المواطن وتعذيبه، مرددين أمامهم على الدوام: «ما للقبيلي إلا الإهانة»،[1] فكانت نار الخارج أخف وطأة عليهم من جحيم الداخل، الأمر الذي جعل بعضهم يستوطن البلاد التي هاجر إليها، ولم يعد إلى بلده، مواسيا أهله وأقاربه بما تيسر من المال الذي يعينهم على مواجهة شظف العيش، كما هو الشأن اليوم؛ إذ يمثل المغتربون دعامة اقتصادية كبيرة للوطن، ولولا هذه الدعامة لكان حال البلاد أكثر سوءا مما هي عليه. وكان من عاد من المغتربين إلى الوطن آنذاك يتعامل معه عمال الإمام وجنوده كفريسة لهم، فيضطر للعودة إلى الهجرة مرة أخرى؛ علما أن بعضا من هؤلاء المهاجرين «المغتربين» الذين توافدوا على منطقة شرق افريقيا أو الهند أو دول شرق آسيا قد واصلوا هجراتهم غربا إلى بريطانيا أو فرنسا، وبعضهم إلى الولايات المتحدة الأمريكية، بحثا عن فرص عمل أفضل. ومن هؤلاء المناضل الشاعر صالح سحلول، رحمه الله.[2]

والواقع أن سياسة التحقير والسخرية هي مما توارثه الأئمة خلفا عن سلف، منذ يحيى حسين الرسي وإلى اليوم، وفي هذه اللمحات الشعرية للشاعر «القارة» صورة عن تلك الرؤية التي يعتقدونها في عامة الناس في قصيدة من الشعر الشعبي:

(1) ــ في زيارته إلى السودان عام 1954م، والتقائه بأفراد الجالية اليمنية المهاجرين هناك، سألهم المناضل محمد محمود الزبيري رحمه الله: ما جاء بكم إلى هنا؟ فأجب كل منهم على انفراد: واحد قال: أنا عليٌ تنفيذ، وآخر قال: أنا عليّ شريعة، وثالث قال: أنا عليّ متأخرات وواجبات، وواحد قال: أنا لم أجد لقمة العيش، فرد عليهم الزبيري: وأنا أراجع لكم الإمام من بعيد بعدما عجزت عن مراجعته من قريب. أنا مثلكم لا أشتي أحد ينفذ علي، ولا أريد أحدا يظلمني، ولا أريد أحدا ينهب بقرتي ويجلس «إمام» على رؤوسنا. الهجرات اليمنية عبر التاريخ، 72.

(2) ــ حدثني الوالد المناضل المرحوم صالح سحلول، رحمه الله ــ وهو من أبناء منطقة رداع ــ في إحدى جلسات المقيل معه عن رحلاته شابا إلى الحبشة، ثم إلى أمريكا، إبان حكم يحيى حميدالدين، هو وبعض رفاقه، فرارا من بطش جنود الإمام وطلب الرزق.

القبيْـــلي عـــدو نفســـه صـــدق قد قالـها المجرب
كم يطيش في الضلال حسه حيـن تشرق وحين تغرب
حـــق برمـــيل يسد نخـسه ويدْرَه وهـــو مســـنب
وبشـــامق تدوس ظـــهره وفرق كـــل يوم فرقـــة
وزناجـــير تفـــك صـــدره كل حـــلقة تلز حـــلقة
وحـــزام أكل تكـــد «جـ..» كل ضربة تشل نتـــفة
ما علـيك في الجعيل ملامة لك ثواب تبعد الشـــناعة
لا تـــرج له الســـلامة لا ولا تطلب له الشفاعة

وفي هـذه الصـور الشـعرية للشـاعر محمـد أنعـم غالـب مشـاهد تقريبيـة عـن تلـك المآسـي المؤلمـة والداميـة:

وذات يوم نبذته باخرة
في مرفأ يغرقه الزحام
وليس فيه موضع لعامل جديد
العاطلون بالمئات
يقضون يومهم ممددين
في العراء يعصرون النسمات
بأجنحة
مصنوعة من سعف النخيل
وكل شيء فيه نار
الجو نار والغلاء نار
حتى كؤوس الماء تباع بالنقود
وعاش مثل ساحر عجيب

يبيع آمالاً ليائسين
يخطّ في الترب السطور
ويكشف المحجب المستور
ويخلط الكلام
ببضع تمتمات
وآية الكرسي، والنجاة
ويكتب التمائم المطلسمات
لعاشق مفارق، وغائب يعود.

نعم.. واجهوا كل هذه الأخطار، ومع ذلك ــ وبحسب مطهر الإرياني ــ: قابلوا كل ذلك بصبر عظيم، وجلدٍ لا يذل ولا يهون، وبقدرة على التكيف مع عالم غريب ينكرهم وينكرونه، وينفيهم فيقتحمونه، مما ينبئ عن معدن صلب عريق لهذا الشعب الذي أنجب هؤلاء الرجال، ويبشره بمستقبل زاهر مجيد رغم كل ما يحيط به من مكر الأعداء وقسوة الظروف.

ولعل قصيدة «البالة» لمطهر الإرياني التي غنها الفنان السمة أبلغ صورة شعرية عن تلك المعاناة التي كان يعانيها اليمني في بلد المهجر، بعد أن تم تهجيره بسبب ظلم عساكر الإمام، وفيها:

والليلة البال ما للنسمة السَّارية
هبَّتْ من الشَّرق فيها نفحةُ الكاذية
فيها شذى البن فيها الهمسة الحالية
عن ذكريات الصِّبا في أرضنا الغالية
والليلة العيد وانا من بلادي بعيد
ما في فؤادي للطوفان الأسى من مزيد

قلبـي بـوادي بنـا، وأبيـن، ووادي زبيـد
هايـم وجسـمي أسـير الغربـة القاسـية
خرجـت أنـا مـن بـلادي فـي زمـان الفنـا
أيـام مـا موسـم الطاعـون قالـوا دنـا
وماتـوا أهلـي ومـن حـظ النكـد عشـت أنـا
عشـت أزرع الأرض واحصـد روحـي الذاويـة
ذكـرت أخـي كان تاجـر أينمـا جـا فـرش
جـوا عسـكر الجـن شـلوا مـا معـه مـن بقـش
بكـر غبـش، أيـن رايـح؟ قَـال أرض الحبـش
وسـار واليـوم قالـوا: حالتـه ناهيـه.
بكـرت مثلـه مسـافر والظفـر فـي البكـر
وكان زادي مـع اللقمـة ريالـين حجـر
وأبحـرت فـي سـاعية تحمـل جلـود البقـر
والبـن للتاجـر المحظـوظ والطاغيـة
بحثـت عـن شـغل فـي الدكـة وداخـل عصـب
وفـي الطـرق والمبانـي مـا وجـدت الطلـب
شـكيت لاخوانـي البلـوى وطـول التعـب
فقالـوا: البحـر . قلـت البحـر وا سـاعية
وعشـت فـي البحـر عامـل خمسـة عشـر سـنة
فـي مركـب (اجريكـي) أعـور حـازق الكبتنـة
وسـوَّد الفحـم جلـدي مثلمـا المدخنـة
وطُفـت كـم يـا بُلـوِّد أرضهـا قاصيـه

مثـل الطيـور القواطـع طفـت كل الجـزر
غويـت لـي مـا غويـت لمـا كرهـت السـفر
واختـرت (بـر الدنـاكل) مُتَّجِـر بالحِصـر
مـن حـي لا حـي يـا مركـب بـلا سَـارية
غريـب فـي الشـاطئ الغربـي بجسـمه نـزل
والـروح فـي الشـاطئ الشـرقي وقلبـه رحـل
يـا ليـت والبحـر الأحمـر ضـاق ولا وصـل
جسـور تمتـد عبـر الضفـة الثانيـة
مـن كان مثلـي غريـب الـدار مالـه مقـر
فمـا عليـه إن بكـى وأبكـى الحجـر والشـجر
أبكـي لـك أبكـي، وصـب الدمـع مثـل المطـر
ومـن دم القلـب خلـي دمعتـك جاريـه
غنيـت فـي غربتـي: يـا للـه لا هنتنـا
ومـزق الشـوق روحـي فـي لهيـب الضنـا
راجـع أنـا يـا بـلادي يـا ديـار الهنـا
يـا جنتـي يـا مـلاذي يـا أمـي الغاليـة

هـذه أبلـغ صـورة مـن الشـتات وعذابـات الاغتـراب لليمنـي الـذي أضنتْـه الإِمَامَـةُ جـورًا وقتـلا وتشـريدًا، وهـو نجـل سـبأ وحِمْيَـر، وفـي أرضـه مـن الخيـرات الكثيـر لـو سَـلمتْ ـ فقـط ـ مـن نهْـب واسْـتحواذ جَـلاوزة الإِمَامَـةِ التـي أكَلـت الأخضـرَ واليابـسَ وجَعلـت مِـن المُواطـن مجـردَ عامـلٍ لهـا علـى مـر العَـام فقـط.

والقصيدةُ الأخرى ـ أيضا ـ للشاعر عبدالله البردوني، وليست بعيدة عن سابقتها، بل مجسدة تلك الحالة المزرية بصورة أجلى وأوضح. والقصيدتان كلتاهما تتذكران المآسي، وكلتاهما تتغنيان بالوطن، وكلتاهما تنتهيان بأملٍ مغدور. كما أن كلتيهما أشَارتا لفترة الإمَام يحيى، والحقيقة لكل فترات الأئمَّةِ سابقا ولاحقا.. وعنوان الأخيرة: «غريبان وكانا هما البلد».

من ذلك الوجه؟ يبدو أنه «جَنَدي»
لا.. بل «يريمي» سأدعو ، جدّ مبتعد
أظنّه «مكرد القاضي» كقامته
لا .. بل «مثنى الرداعي» «مرشد الصّيدي»
لعلّه «دبعيٌّ» أصل والده
من «يافع» أمُّه من سورة المسد
عرفته يمينا في تلفّته خوف
وعيناه تاريخ من الرمد
من خضرة القات في عينيه أسئلة
صفر تبوح كعود نصف متّقد
رأيت نخل «المكلا» في ملامحه
شمّيت عنب «الحشا» في جيده الغيد
من أين يا بني؟ ولا يرنو، وأسأله
أدن قليلا.. صَباح الخير يا ولدي
ضَمّيْتُه مِلءَ صَدري. إنَّه وطني
يبقى اشْتياقي وذوبي الآن يا كبدي

***

يسعد صَباحك يا عمّي. أتعرفني؟
فيك اعتنقت أنا، قبّلت منك يدي
لاقيت فيك «بكيلا» «حاشدا» «عَدَنًا»
ما كنت أحلم أن ألقى هنا بلدي
رأيت فيك بلادي كلّها اجتمعت
كيف التقى التسعة المليون في جسد؟

***

عرفتُ من أنت يا عمّي، تلال «بنا»
«عيبان» أثقله غاب من البرد
«شمسان» تنسى الثريّا فوق لحيته
فاها وينسى ضحى رجليه في الزبد
«بينون» عريان يمشي ما عليه سوى
قميصه المرمريّ البارد الأبدي
صخر من السدّ يجتاز المحيط إلى
ثانٍ ينادي صداه: من رأى عُمُدي؟

***

ما اسم ابن أمي؟ «سعيد» في «تبوك» وفي
«سيلان» «يحيى» وفي «غانا» «أبو سند»

***

وأنت يا عمّ؟ في «نيجيريا» «حسن»
وفي «الملاوي» دعوني «ناصر العندي»

***

سـافرت فـي سـنة «الرامـي» هربـت علـى
عمّـي غـداه قبرنـا «ناجـي الأسـدي»
مـن بعـد عاميـن مـن أخبـار قتـل أبـي
خلـف «اللُّحيّـة» فـي جيـش بـلا عُـدد
أيـام صاحـوا: قـوى «الإدريسـي» احتشـدت
وقابلوهـــا: بجيـــش غيـر محتشـد

***

رحلـت فـي ذلـك التَّارِيْـخ أذكـره
كأنهـا سـاعة يـا «سـعد» لـم تـزد
صبـاح قالـوا: «سـعود» قبـل خطبتهـا
حبلـى. و«حيـكان» لـم يحبـل ولـم يلـد
و«الدودحيّـــة» تهمـي فـي مراتـــعنا
أغانـي العـار والأشـواق والحسـد
ودّعـتُ أغنامـي العشـــرين «محصنـة»
حتـى أعـود، وحتـى اليَـوم لـم أعـد

***

مـن مـات يـا ابنـي؟ مـن الباقـي؟ أتسـألني!
فصـول مأسـاتنا الطولـى بـلا عـدد
مـاذا جـرى فـي السـنين السـت مـن سـفري؟
أخشـى وقـوع الـذي مـا دار فـي خلـدي
مارسـت يـا عـمّ حـرب السـبع متقـدا
تقودنـي فطنـة أغنـى مـن الوتـد

كانــت بــلا أرجــل تمشــي بــلا نظــر
كان القتــال بــلا داعٍ ســوى المــدد

***

وكيــف كنتـــــم تنوحــون الرجــال؟ بــلا
نــوح. نمـــــوت كمــا نحيــا، بــلا رشــد
فـــــوجٌ يمـــــــوت وننســـاه بأربعــة
فلــم يعـــــد أحــد يبكــي علــى أحــد
وفــوق ذلــك ألقـــــى ألــف مرتـــــزق
فــي اليَــوم يســألني: مــا لــون معتقــدي؟
بــلا اعتقـــــاد، وهــم مثلــي بــلا هــدف
يــا عــم مــا أرخــص الإنســان فــي بلــدي!
والآن يــا ابنـــــي؟ جــواب لا حــدود لــه.
اليَــوم أُدجــي لكــي يخضــرَّ وجــه غــدي

وللشاعر محمد غالب أنعم ــ وهو من أبناء الحجرية ــ ديوان شعر اسمه «غريب على الطريق» يؤرخ لمآسي تلك الفترة، وحال اليمني في بلدان الشتات، حين كانت الغربة والهجرة انقطاعا كليا عن الأهل والدار قبل تيسر الهاتف والبريد إلا في حده الأدنى. يقول في واحدة من قصائده عن ذلك اليمني البئيس المشرد:

كل الموانئ تعرفه
كل البلاد جابها
كل البحار خاضها
بأي اسم/ أبوه سماه «علي»

وحين صار في عداد الوارثين
أثبت اسمه «علي»
في دفتر الزكاة
طارده الجُباة
وباع نصف ثروته
ليدفع الزكاة
وأجرة التقدير والجباة والجنود
ورشوة الحاكم والأمير..
وغادر الوطن
حكوا له أن البحار في البعيد تقذف اللآل
وأن عالماً يمتدّ خلف دولة الإمام
أنهاره شطوطها ذهب
جباله الماس
عالم عجيب
يصنع الثياب والساعات
والخيوط والإبر
والطائرات
تلك التي تمر في السحاب
وفيه ينطق الحديد
ما ضره، لو غادر الوطن
وآخرون غادروه قبله
وهذه أخبارهم تعود
وطيّها نقود
وقطع الكساء.

وبلسان ذلك اليمني المشرد البئيس في المهجر، سواء في الحبشة أم غيرها، يقول:

إني أخاف أن أموت في البعيد
وفوق قبري ينقشون أي اسم
إلا.. «علي»
عمرتُ كل أرض
وموطني خراب
لكم أتوق أن أعود أعمر الوطن
لكم أتوق أن أدق فوق صخره بفأس
لكم أتوق أن أشم ريحة الحقول
لكم أتوق أن أرى عيد الحصاد
وأن أعيد الأغنيات
في موسم البذور والحصاد
لكم أتوق أن أنادى: «يا.. علي»

تم تهجير قرى بكاملها، فأقفرت وصارت بلقعًا تعوي فيها الذئابُ بعد أن كانت عامرة بالحياة، بمزارها وثروتها الحيوانية، وبأهلها ومساجدها القائمة في كثير من مناطق الحجرية، ومناطق اليمن عموما.

وتفصح لنا بعض القصائد الشعرية التي نظمها بعض الشعراء عن جزء من تراجيديا تلك المرحلة، كقصيدة الدكتور/ الدكاترة سعيد الشيباني «يا نجم يا سامر» التي غنها الفنان المرشدي والفنان السوري فهد بلان، وفيها:

هجرتني والقلب غير سالي كل السبب عساكر الحلالي
بكّر من التربة غبش يلالي بيده سبيل بجيبه أمر عالي[1]

(1) ــ الحلالي هنا هو القاضي حسين الحلالي، عامل الإمام على الحجرية والذي كان يسلط عساكره عليهم.

إلى جانب هذه القصائد الشعرية التي ذكرنها، وأهمها قصيدتي البردوني ومطهر الإرياني، أيضا ثمة الجانب الروائي الذي أبدع فيه أحد المهاجرين الأدباء، وهو محمد أحمد عبدالولي العبسي، وكان من أبٍ يمني، وأم حبشية، عانى كثيرًا بسبب هذا الازدواج العرقي وتبعاته النفسية الذي لاقاه منذ طفولته، فكتب روايته الشهيرة «يموتون غُرباء». وفيها من الحنين للأرض والموطن الأصل ما تسيل معه العبرات، خاصة وهو يتناول عذابات الأطفال الذين ولدوا في أرض المهجر، بمن فيهم الأطفال المولودين بطريقة غير شرعية، والذين طالتهم المعاناة لغير ذنب ارتكبوه، أو جناية أتوها.

المهاجرون في المنافي.. تحديات وإبداع

تبنى الامبراطور هيلاسلاسي[1] رصف الطريق بين مدينتي: هرر ودردوا، بما يقارب مئة كيلو متر، ولم يجد أفضل من المقاول صالح الجمّال الذي استعان باليمنيين في تنفيذ المشروع، فرصفوها بالأحجار المصلولة، ناقلين الخبرة اليمنية القديمة في رصف الطرقات التي توارثوها منذ العهود السبئية فالحميرية.[2] وحين أكمل الجمّال رصفها أعجب الامبراطور بإبداعه المتميز، فمنحه وساما الإمبراطورية.

في السودان

تعود أول هجرة يمنية جماعية في العصر الحديث إلى العام ١٨٨٤م، حينما تعاقد المقاول الإغريقي «انجلو كابوتو» مع عمال يمنيين كحمالين في ميناء سواكن، لتفريغ السفن المحملة بمواد البناء، لخط السكة الحديد سواكن ـ بربر.[3]

وكانت الهجرة اليمنية الكبرى إلى السودان عام ١٩١٩م حين قام البريطانيون باستقدام أعداد كبيرة من العمال اليمنيين، وتم التعاقد معهم

(1) ــ اسمه الحقيقي تفري ماكونين، ولكن بحكم أن رئيس الدولة هو رئيس الكنيسة في نفس الوقت فقد اتخذ لنفسه هذا اللقب الديني «القوة الثلاثية: الأب، الابن، روح القدس»

(2) ــ عمل الملك أسعد الكامل على تعبيد الطريق من مقر إقامته في أرض يحصب بظفار «إب حاليا وتحديدا يريم منها» إلى مكة المكرمة، بل عمل على «تبليطها» بالأحجار المصْلولة إلى هناك، ولا تزال بعض من مَقاطع هَذِه الطريق تُعرف باسمه إلى اليوم، كصلول «خيوان» من بلد حاشد، ونقيل الغولة المطل على البون من همدان، وأيضا طَريق أسعد الكامل التي لها بقية اليَوم في بِلاد عسير! ذكر ذلك الأكوع في كتابه: اليمن الخضراء مهد الحضارة.

(3) ــ الهجرات اليمنية عبر التاريخ إلى منطقة شرق أفريقيا، سابق، 54. وانظر أيضا: جسر الوجدان بين اليمن والسودان، نزار عبده غانم القرشي، ط:1، صنعاء، 1994م، 61.

لبناء ميناء الشيخ برغوث، المعروف حاليا بميناء بورت سودان، وكذلك بناء خطوط السكك الحديدية من بورت سودان إلى كسلا وسنار، فدخلت هذه الهجرة اليمنية الكثيفة من طريقين: عبر البحر الأحمر عن طريق ميناء سواكن، وعبر أرتيريا عن طريق ميناء مصوع، فكسلا.[1]

بيد أنه يتوجب علينا هنا عدم إغفال حقيقة هامة، وهي أن اليمنيين استطاعوا أن يوجدوا أعمالا ومهنا جديدة، لم تكن موجودة في السابق، كصناعة الخبز، وافتتاح المطاعم والمقاهي، كما حاول بعض المغتربين اليمنيين العمل في الزراعة، واستطاع البعض الآخر منهم فيما بعد الدخول في مجال التجارة الصغيرة.[2]

في جيبوتي

وقد عمل المغتربون اليمنيون ـ وأغلبيتهم الغالبة من الحجرية ـ في جيبوتي في بناء بعض مدنها وموانئها إبان احتلالها من قبل فرنسا، وكذا المزارع التي تأسست في المناطق الخصبة، والآباء التي حفروها، ناقلين خبراتهم التاريخية في البناء والتشييد والزراعة، إضافة إلى أعمال البناء في المنشآت الحديثة التي تبناها الفرنسيون كالمكاتب الخدمية والمدارس وغيرها؛ بل لقد تبنى بعض الميسورين منهم ممن عمل في التجارة بناء بعض المساجد على نفقته الخاصة. ومن أسماء هذه المساجد: مسجد حمودي، مسجد طاهر علي سيف، مسجد السيد حسن، مسجد عبدالله طه، مسجد كبيش، مسجد عبده يحيى، مسجد الصارم، مسجد الضوراني، وغيرها.[3]

(1) ـ نفسه، 56.

(2) ـ نفسه، 57.

(3) ـ نفسه، 214.

والأجمل من كل شيء أنهم نقلوا فنون المعمار اليمني إلى جيبوتي فكانت البيوت في جيبوتي كأنها من بيوت اليمن، كما فعلوا مع عدن بعد أن تعاظمت ثروتهم، إذ كان الطابع المعماري في كريتر «عدن الصغرى» أو المعلا يغلب عليها الطابع الهندي، لأن تلك المباني من أعمال المقاولين والعمال الهنود، وحين نافسهم أبناء الحجرية هناك استطاعوا «يمننة» المباني وتثبيت الهوية المعمارية اليمنية في كل منشآتهم في المناطق الأخرى من عدن.

في اثيوبيا

كانت اثيوبيا هي الوجهة الرئيسية لليمنيين، نظرا لخصوصية العلاقة التاريخية التي تربط الشعبين، والتي تعود إلى ما قبل الإسلام، حيث وصلها اليمنيون في العهود الحميرية الأولى، وأسسوا المعابد الدينية، وحكم بعضها هناك، ولا تزال نصوص المسند شاهدة على هذا الامتداد إلى اليوم.، كما لا تزال بعض المسميات تحمل الجذر اليمني أيضا.

وفي القرن العشرين تدفقت جموع المهاجرين الفارين من بطش الإمام وجلاوزته الطغاة، وإلى حد كبير كانوا يشعرون بالأمان والاطمئنان نظرا لطبيعة النظام السياسي في العهد الامبراطوري. وظل هذا التدفق من الهجرات الجماعية والفردية قائما حتى منتصف القرن الماضي، علما أن أول جالية يمنية تأسست في أثيوبيا كانت في العام ١٩٤٠م. وهي أول جالية لليمنيين في بلدان المهجر.

وقد كان من نتيجة ذلك أن استقرت مجاميع غير قليلة منهم في بعض المدن الرئيسية التي كانوا قد وصلوا إليها في كل من اثيوبيا وارتيريا، وعلى الأخص في مدن: اسمرا وعصب ومصوع وأديس أبابا وجمة وهرر ودردوه، وحاولا استحداث بعض الأعمال المهنية والحرفية الجديدة

والعمـل فـي الأنشـطة التجاريـة المتوسـطة والصغيـرة، فـي الوقـت الـذي انتشـرت فيـه المجموعـات الأخـرى فـي مناطـق مختلفـة مـن أراضـي اثيوبيـا وارتيريـا، وتوغلـوا فـي الأعمـاق والأدغـال والغابـات والأحـراش والأريـاف النائيـة، واحترفـوا مهنـىً شـتى، وإن كان العـدد الأكبـر منهـم قـد عملـوا فـي المجـال الزراعـي.[1]

(1) ـ نفسه، 111.

أبناء الحجرية في المهجر
المال في موكب النضال

المالُ عصبُ الحياة، وهو عصبُ النضال وعظامه أيضا، ولولا المالُ، ومالُ أبناء الحجرية تحديدا لما استطاع الأحرار الأوائل منذ أربعينيات القرن الماضي ممارسة نشاطهم بتلك الصورة التي نقرأ عنها اليوم، في واحدة من أبهى صور النضال والتضحية المتكامل بين رجال الكلمة من المثقفين والسياسيين والأدباء ورجال المال والأعمال من التجار. وتجار الحُجرية على وجه التحديد.

كان أبناء الحجرية في كل من عدن وأسمرة ونيروبي وأديس أبابا وجيبوتي وكينيا يكدون ليلا ونهارا في العمل في مختلف المجالات، متبرعين بجزء من أموالهم التي اكتسبوها بعرق جبينهم لعمل الخير، وللقضية الوطنية؛ بل لقد كان الشيخ ناشر عبدالرحمن العريقي تاجرًا كبيرا في نيروبي عاصمة كينيا، وظل ينفقُ ماله دعمًا للأحرار، حتى نفد آخر ريال معه، فعاد من كينيا إلى صفوفِ الأحرار بعدن، ثم صنعاء، واستضافه سجن حجة بعد فشل الثورة، وأفرج عنه، وواصل نضاله بعد ذلك، وكان هو من يكتب المنشورات بيده، واستمر على هذه الحال حتى وفاته في أسمرة قُبيل قيام الثورة بأشهر.

في بداية الأربعينيات كانت عدن، ثم أسمرة وأديس أبابا والصومال وجيبوتي وكينيا ومدغشقر مسرحًا كبيرا لنشاط أبناء الحجرية الذين اضطرهم النظام الإمامي الكهنوتي لمغادرة البلاد، وقد كانوا ملوكا فلاحين

في أراضيهم، وكادوا يمسكون برأس المال الحبشي والأفريقي، لا في شرق أفريقيا وحدها؛ بل لقد تجاوزوا ذلك إلى الهضاب الداخلية في أواسط أفريقيا. "فقد كان المغترب اليمني حينذاك قد أثرى وعمّر وشيد، وأقام الأبنية، وامتلك المصانع، وافتتح المتاجر، ورفع لنفسه بعصاميته الشوامخ والقلاع، ولكنه كان يومها لا يزال ينظر إلى كل ذلك في خيفة وإشفاق، وإنه لحائر ومرتاع أمام كل هذا الذي حقق».[1]

وظلوا كذلك حتى انقلاب الشيوعي العتيد منجستو هيلا مريام عام ١٩٧٤م ذي الولاء الشرقي، ضد سلفه الامبراطور هيلا سلاسي، ذي الولاء الغربي والذي حكم اثيوبيا حوالي ٤٦ عاما. ثم التأميم الذي لحق الانقلاب، وسجن بعضهم، فعادوا بثيابهم التي عليهم من حيث أتوا؛ أما أملاكهم وتجاراتهم التي جمعوها خلال عقود سابقة فقد أصبحت ملك الدولة الجديدة، كما كانت تقتضي أغلب سياسة الانقلابات الشرقية حينها.[2] وكانت كارثة اليمنيين هذه واحدة من الكوارث التي سبقتها، سواء في الداخل أم في الخارج، أشبهتها فيما بعد كارثة عام ١٩٩٠م في الخليج التي تسببت فيها سياستنا الخاطئة للأسف، ولا تزال هذه السياسات القاصرة تجني الويلات على الشعب.

حزب الأحرار

تشكل حزب الأحرار في عدن في العام ١٩٤٤م برئاسة الأستاذ أحمد محمد نعمان، وإدارة محمد محمود الزبيري،[3] عقب هروبهما من تعز إلى

(1) ـ نفسه، 117.

(2) ـ في العام 1972م قام الرئيس سالم ربيع علي، رئيس جمهورية اليمن الديموقراطية الشعبية سابقا بعملية تأميم، وكان من ضمن من تعرض لظلم هذا القرار الجائر تجار اثيوبيون بعدن، تم تأميم ممتلكاتهم للدولة، جنبا إلى جنب مع التجار الآخرين، وإن كان لا مقارنة بين كمية التجار اليمنيين في اثيوبيا إبان تأميم منجستو وتأميم سالم ربيع.

(3) ـ وفقًا لرواية الشامي: انتُخبَ الأستاذ أحمد نعمان رئيسًا للحزب، والسيد زيد الموشكي نائبًا، والأستاذ الزبيري مديرًا، وأنا «أحمد الشامي» سكرتيرًا عاما، والحاج عبدالله عثمان أمينًا للصندوق. رياح التغيير في اليمن، 135.

عـدن، وهنـاك تعرفـا علـى مجموعـة مـن العمـال والتجـار اليمنيين مـن الحجرية، وأغلبهـم يعملـون فـي تجـارات صغيـرة، لأن تجـار طائفـة البهـرة ويهـود كريتـر والهنـدوس «البانيـان» كانـوا المسيطرين علـى تجـارة عـدن حينهـا؛ كـون المدينة تحـت الاحتـلال البريطانـي، وهـؤلاء مـن رعاياهـا المخلصيـن ومـن الأكثـر ولاء لها .

كان هـؤلاء المهاجـرون للعمـل هنـاك فـي أوج غضبهـم وحنقهـم علـى سـلطة الإمـام يحيـى فـي صنعـاء ونجلـه ولـي العهـد أحمـد فـي تعـز، لسـببين:

الأول بسـبب القمـع والبطـش والطغيـان الـذي مارسـه جهـاز حكمهـم ضـده فـي قراهـم الريفيـة فـي الحجريـة، حتـى اضطرهـم إلـى المغـادرة إلـى عـدن، سـواء فـي عهـد الأميـر علـي الوزيـر أم فـي عهـد ولـي العهـد أحمـد.

الثانـي: لمـا شـاهدوه فـي عـدن مـن معالـم المدنيـة والحضـارة والتقـدم، قياسـا بتعـز وصنعـاء وبقيـة المـدن اليمنيـة الغارقـة فـي ظـلام مملكـة الظـلام. ولا يوجـد بهـا أدنـى معالـم المدنيـة والتحضـر التـي فـي عـدن، ناهيـك عـن بقيـة الحواضـر العربيـة الأخـرى كالقاهـرة وبغـداد وبيـروت ودمشـق.

وقبـل نشـوء حـزب الأحـرار كان هـؤلاء التجـار، وأغلبهـم مـن الأغابـرة والأعـروق قـد أسسـوا نـوادٍ ثقافيـة فـي عـدن، مثـل نـادي الاتحـاد الأغبـري والتعـاون العريقـي والاتحـاد العبسـي والقدسـي والذبحانـي والشـيباني، وجمعيـة التعـاون للقبيطـة واليوسـفين وجمعيـة بنـي حمـاد.. إلـخ.

ومـن داخـل أروقـة هـذه النـوادي الثقافيـة «الحجريـة» فـي عـدن تبلـورت فكـرة حـزب الأحـرار، ووضعـت النـواة الأولـى لـه، ثـم للجمعيـة اليمانيـة الكبـرى لاحقـا. ومـن داخـل هـذه النـوادي تـم التواصـل مـع التجـار والمثقفيـن اليمنييـن فـي الحبشـة وجيبوتـي والقاهـرة ونيروبـي والصومـال الذيـن دعمـوا الفكـرة بالمـال والكلمـة.

وفـي داخـل تلـك النـوادي كان يتـم جمـع المبالـغ الماليـة الصغيـرة التـي يتبـرع بهـا

التجار والعمال من أبناء الحجرية في عدن، لتمويل أنشطة الحزب، منذ تأسيسه في يونيو ٤٤م حتى إغلاقه آخر هذا العام نفسه، بأمرٍ من السلطات البريطانية بعد التفاهم الذي جرى بينهم وبين الإمام يحيى عبر مندوبيه إلى عدن.

يقول علي محمد عبده: «كان العمال والمداكنة في عدن والمهاجِر هم قاعدة الحزب والممولين له، أو بالأصح الذين يقومون بتوفير ما يُطلب منهم من نقود، يقومون بدفعها حسب إمكانياتهم البسيطة، ويجمعونها من زملائهم. وقد اعتمدت حركة الأحرار على التبرعات أكثر من اعتمادها على الاشتراكات الشهرية التي لا تفي بتوفير الأموال المطلوبة للصرفيات. وقد تولى أفرادٌ منهم مسألة دفع ذلك وجمعه والإشراف على إنفاقه، وعينوا في بادئ الأمر عبدالله محمد الشطفة أمينا للمال، يقوم بتسجيل كل ما يقدم من تبعات واشتراكات للحركة، وتسجيل أوجه صرفها. وكان المتبرعون والمشتركون يقدمون تبرعاتهم واشتراكاتهم بصورة سرية، ويشترطون عدم الإفصاح عن أسمائهم، خوفا من انتقام الإمام وولي العهد من ذويهم في القرى، خاصة بعد السجن الجماعي وحملة الاعتقالات في المملكة المتوكلية في ذلك الحين، وهدم بعض الدور، وانتشار الرعب والخوف بين المواطنين. وبدافع الخوف من بطش الإمام بأقارب عبدالله الشطفة قدم استقالته من أمانة المال، وعين الحاج عبدالله عثمان بدلا عنه، إلا أن بعض أقاربه الذين بلغهم الخبر قدموا من الحجرية إلى عدن يترجونه تقديم استقالته، فاستقال من أمانة المال، ومع ذلك أحرقت أمواله في ذبحان، وقتلت مواشيه، وحل محله عبدالعزيز عبدالله أحمد الحروي..».[1]

وقد كان من بين المتبرعين بالأموال أطفال ونساء مهاجرات في عدن، كان هؤلاء يجمعون ما تيسر، ويتبرعون به للأحرار لصالح القضية.

ما تجدر إليه الإشارة هنا هو الخلاف بين بعض الأحرار بشأن مالية

(1) ــ لمحات من تاريخ حركة الأحرار اليمنيين، 1/239. والمداكنة: جمع مدكن، أي صاحب دكان صغير للتجارة، وهي من الألفاظ الشائعة شعبيا.

الحزب، وتعمد الأستاذ نعمان عدم الكشف عن أسماء المتبرعين الذين كانوا يشترطون السرية في ذلك حتى لا يتضرر أقاربهم في تعز، في الوقت الذي كان الشيخ مطيع دماج ومحمد الفسيل وزيد الموشكي وأحمد الشامي وآخرون مصرين على معرفة ذلك، فأصر الأستاذ نعمان على رأيه، وتحمل اتهامات رفاقه في التصرف بمالية الحزب والاستبداد بهم، حد تعبيرهم، فيما هو وفي مع رفاقه المتبرعين، لأن عيون الإمام تلاحق نشاط الأحرار داخل عدن.

وهكذا شكّلَ رأسُ المال الحُجري الدعامة الرئيسية لحزب الأحرار، كما كان كذلك أيضا للجمعية اليمانية الكبرى، وما لحقها من أنشطة كما سنرى.

الجمعية اليمانية الكبرى

بعد حل حزب الأحرار في عدن من قبل السلطات البريطانية، وبعد عودة الكثير من قيادة وأعضاء حزب الأحرار إلى شمال الوطن، بقيَ نعمان والزبيري، ومعهما الأديب والشاعر عبدالله عبدالوهاب نعمان «الفضول» في عدن، رغم شظف العيش ونفاد ما يملكون جميعًا من نقودٍ تمكنهم من البقاء هناك، حتى فكرا أيضا بالعودة، لولا اتصال رجل الأعمال اليمني في الحبشة أحمد عبده ناشر بالزبيري ونعمان، طالبًا منهما البقاء ومواصلة النشاط، ومتكفلا بتوفير نفقاتهما الضرورية، وأرسل لهما مبلغا ثلاثمئة روبية، يستطيعون البقاء عليها لمدة ثلاثة أشهر. وهو ما تم بعد ذلك.

ومثّل هذا المبلغ على تواضعه تأسيسا جديدا لمرحلة نضالية جديدة، إذ بقي الأستاذان نعمان والزبيري هناك، معادوين علاقاتهم السابقة بالعناصر الثقافية والنضالية من أبناء عدن، وممن وصل من الشطر الشمالي بعد

ذلك؛ كما ظلا على صلة ببعض الصحف والمجلات، سواء في عدن أم في القاهرة، لتنزاح أستار وحجب السياسة المتعلقة بالحرب العالمية الثانية آنذاك، ويبتدئ ــ من ثم ــ أفق جديدٌ لم يكن بحسبانهم سلفا.

وباستقراء نشاط الأحرار في العام ١٩٤٥م، يتضح أنهم تلقوا دعما ماليا آخر إلى جانب المبلغ المذكور سابقا من رجل الأعمال أحمد عبده ناشر، وصل إلى ثلاثة آلاف و ٨٦ روبية، حسبما أرفقه علي محمد عبده في قائمة توضح أوجه الصرف والمبلغ أمام كل اسم، كما توضح صور الوثائق.[1] وأنه على الرغم من حل الحزب إلا أن نشاط الأحرار لم يتوقف، خلال العام ٤٥م أبدا، فقد نعمان والزبيري ومعهما بعض الأحرار يتحركان بسرية، ولم يقيدهما قيد، وذلك بفضل المال الذي تيسر للأستاذين، والذي حفزهما لمواصلة العمل. وتفاصيل صرف تلك الأموال موضحة في جداول خاصة في كتاب علي محمد عبده: لمحات من تاريخ حركة الأحررا اليمنيين.

وعلق علي محمد عبده على هذا بقوله: «مكن استمرار تلك المساندة المادية لحركة الأحرار بعدن على استمرار نشاطهم، ومن الإنفاق على زملائهم في القاهرة، وتمويل طبع الكتيبات.. وتمويل المواصلات بين عدن وبين مختلف المدن والقرى اليمنية، وتمويل الاتصالات بالأحرار في مختلف مهاجرهم، والاتصال بغيرهم من رجال الفكر والسياسة في مختلف أنحاء الوطن العربي».[2]

المهم.. في ٤ يناير ١٩٤٦م، وعقب انتهاء الحرب العالمية الثانية، ورفع الأحكام العرفية الطارئة في عدن، عادَ الأستاذان: نعمان والزبيري نشاطهما من جديد، مُستصدرين من السلطات البريطانية ترخيصًا بتأسيس

(1) ــ نفسه، 247/1.

(2) ــ نفسه، 247/1.

حزب سياسي، في صورة جمعية، وأيضا ترخيصًا بإصدار صحيفة خاصة بالحزب. وهو ما تم فعلا بعد أيام قليلة؛ إذ أسّسُوا «الجمعية اليمانية الكبرى» برئاسة الأستاذ الزبيري، وسكرتارية الأستاذ نعمان. كما حصلوا على ترخيص بإصدار صحيفة «صوت اليمن» برئاسة الزبيري، وإدارة الأستاذ نعمان.

ويتضح من دلالة المسمى «الجمعية اليمانية الكبرى» أنها تشملُ اليمن كله، شماله وجنوبه، اليمن الكبرى، وهي إحدى اللمحات الذكية التي قصدها كل من الزبيري ونعمان على ما يبدو؛ كون اليمن واحدة، وكون القضية اليمنية واحدة: احتلال في الجنوب وطغيان في الشمال.

على أية حال.. عادَ الزبيري ونعمان نشاطهما من جديد، ومن نقطةِ الصفر أيضا، ولما لم يستطيعا إصدار صحيفة صوت اليمن التي استخرجا لها التصريح، كانا ينشران أخبار نشاطهما في صحيفة «الرابطة العربية» التي كانت تصدر من مصر، برئاسة عبدالغني الرافعي[1]، ثم جريدة الصداقة التي كان يديرُها الشهيد محمد صالح المسمري ويحيى زبارة وسلام فارع. ويبدو أنّ الإمامَ يحيى وولي عهده أحمد كانا يتابعان هذا النشاط بكل تفاصيله، فانزعجا له من جديد، وأرادا تكرار التجربة السابقة مع الإنجليز في عدن، إلا أنّ الأمورَ قد تغيرت، ولم يعد بيد الإمام ما يضغط به على الإنجليز، فبعث القاضي راغب ــ الذي كان بمثابة وزير خارجية الإمام يحيى، وهو من الأتراك الذين بقوا في اليمن ــ إلى عدن، وذلك لإقناع الإنجليز بسحب التصريح عنهم، فرد عليه حاكم عدن الإنجليزي يومها ردا قاسيا، بالقول: «نحن لا نستطيع أن نلغيَ شيئا يقره القانون، ولا نستطيع تغيير القانون البريطاني لمنع الحريّات، بالإضافة إلى أنّ معاملة اليمنيين في اليمن معاملة سيئة، فقد وصل إلى عدن حتى الآن ٢٥ ألف لاجئ، غير مَن

(1) ــ عبدالغني الرافعي، صحفي مصري. والرابطة العربية صحيفة كانت تصدر في مصر.

هـم أصحـاب أعمـال، ويبلغـون حوالـي مئـة ألـف، قدمـوا مـن اليمـن. فمـا هـذا؟ لمـاذا لا تحسّـنون الأحـوال فـي اليمـن؟!(1)

«وهنـا يتوجـب علينـا أن ننـوه إلـى الـدور الإيجابـي المهـم الـذي لعبـه المغتربـون في هـذا الجانـب، وخاصـة في اثيوبيـا وارتيريـا، ومـن بينهـم الأسـتاذ شـايف محمـد سـعيد العريقـي، وعبدالقـوي مدهـش الخربـاش الـذي يعـود الفضـل الأول لهـم فـي تشـجيع الجمعيـة؛ حيـث وفـروا لهـا كافـة الإمكانيـات الماديـة.. وسـبق ذلـك أن الأخويـن شـايف وعبدالقـوي كانـا قـد دفعـا سـيف الحـق إبراهيـم إلـى التمـرد علـى أبيـه وشـجعاه علـى التوجـه إلـى مدينـة عـدن، لتزعـم الحركـة، بعـد أن قابـلاه فـي أسـمرا حيـن زارهـا للعـلاج..».(2)

(1) ــ مذكـرات أحمـد محمـد نعمـان سـيرته حياتـه الثقافيـة والسياسـية، مراجعـة وتحريـر: د. علـي محمـد زيـد، مكتبـة مدبولـي، 2003م 139.

(2) ــ الهجـرات اليمنيـة إلـى منطقـة شـرق أفريقيـا، سـابق، 135.وانظـر فـي هـذا الفصـل أيضـا كتابنـا ٢٦ سـبتمبر المسـيرة والميـلاد محطـات مـن نضـال الأحـرار، وزارة الأوقـاف والإرشـاد، ط:١، ٢٠٢١م، ص: ٩٧ فمـا بعدهـا.

جازم الحروي.. المال والقضية

كان الشيخ جازم الحروي ممن اعتقلهم الإمام يحيى ضمن من اعتقلهم آخر العام ١٩٤٨م، وهم كثر، فتم ربطهم جميعا بسلسلة حديدية طويلة، وإجبارهم على المشي على الأقدام من صنعاء، حيث الإمام يحيى، إلى تعز، حيث يقيم نجله ولي العهد أحمد، لمدة سبعة أيام، وأرفق الإمام بهم جنوده المتوحشين الذين ساموهم سوء العذاب، متعمدين إهانتهم إلى حد منعهم من قضاء حاجتهم إلا وفق أمزجة هؤلاء الجلادين، وبمقابل مادي، وأيضا منعهم من تناول الأكل والشرب إلا بمقابل أيضا، وأنى لهؤلاء الأحرار المال الذي يمكنهم من إرضاء هؤلاء الهمج الجلادين..!

وقد كان المناضل جازم الحروي ــ وهو التاجر الميسور الحال ــ يتبرع بالمال مجانا لرفاقه الأحرار طوال مسافة الطريق، ليستطيعوا شراء ما أمكن شراؤه لسد رمقهم. وقد قال القاضي الأكوع عنه ــ وهو أحد رفاق هذه الرحلة المشؤومة ــ: «ولولا أن يسر الله بالأخ جازم المتيسر بالنقود لكنا متنا جوعا. وأغرب من ذلك أنّ الجنودَ كانوا يتألمون، لأنه كان يصرف علينا».[1]

وإلى هذا الموقف التاريخي أشار الزبيري شعرا، مخاطبا جازم، بقوله:

لولاك جازم لم يطعم رفاقك ... غير الموت أو يشربوا إلا حمياه
شاطرتهم كلما قد كان مدخرا ... لديك لم تنفرد عنهم بنعماه
لذاك أنقذتهم من شر مهلكة ... قد كان يحيى طواها في نواياه
ما كان يقصد إلا قتلكم سغبا ... فعقْتَه أنت عن أمر تمناه.

(1) ــ جازم الحروي صانع تحول، بلال الطيب، مركز نشوان الحميري للدراسات والإعلام، ط:1، يناير 2021م، 36.

كما قال فيه عبدالله عبدالوهاب نعمان «الفضول» قصيدة، ومنها:

يؤلب في فجر النضال رعيلها ويســـتنفر الغادين فيها مناشدا
ويمشي إلى آلامها وجراحها يشق لها ثوب الشباب ضمائدا
ويسرح في ديجورها وظلامها ليزرع فيها أنجـــما وفراقــدا

وبطبيعة الحال فقد وصلت تلك الجموع ــ وهم من نخبة اليمن ورموزه ــ مغلولين في الحديد، وتم الزج بهم في السجن؛ أما الشيخ جازم الحروي فقد تم هدم داره الفخم في تعز وتدميره نهائيا، ومصادرة أمواله. ويقال أنه أنفق على ذلك المنزل الضخم ٧٥ ألف ريال فرانصي.[1]

قبل ذلك كان جازم الحروي قد عمل على مساعدة الأستاذين في مغادرتهما تعز إلى عدن، حين أحسا ببطش ولي العهد أحمد، إذ رتب لهما السيارة التي تقلهما إلى عدن، وفقا لرواية علي محمد عبده.[2] وكانت له أنشطة أخرى سرية داخل تعز، عرضت حياته للخطر أكثر من مرة. وهو ما تنامى لاحقا إلى ذهن الإمام، فسجنه ثم سيّره إلى تعز على الأقدام كما ذكرنا. وفي هذا الموقف الذي قدمه جازم الحروي للأستاذين قال الزبيري شعرا:

ألا فليعش في مهجة الشعب جازم تغـــذى به أيامـــها والعــزائم
فتى راعني بالبـــذل حتى ظـننته ملاكا طهورا أنجبته الغـــمائم
فيـــا ملـــكا من أمـــة سبـــئية لقد بعدت عنك اللدات التوائم
لقد أخرجتك الأرض وحدك معجزا كما أخرجت تبرا نضارا مناجم
فبـــالله قل لي كيـــف جئت مهذبا نبيـــلا وما بالـحي إلا السوائم

وقد تكلم عن هول هذه الرحلة الشاقة القاضي عبدالرحمن الإرياني في مذكراته، وكتب عنها أيضا المناضل القاضي عبدالسلام صبرة.

(1) ــ نفسه، 75.

(2) ــ لمحات من تاريخ حركة الأحرار اليمنيين، 178/1.

شراء المطبعة

مع مطلع العام ١٩٤٦م استأنف الأحرار نشاطهم من جديد تحت يافطة «الجمعية اليمانية الكبرى»، وحينها تزايد نشاط الأحرار سياسيا ثقافيا، وتيسرت لهم بعض الطرق الجديدة، ومنها استصدار ترخيص من السلطات البريطانية بإنشاء الجمعية، وإصدار الصحيفة الخاصة بها. وفي تلك الأثناء، أي مع مطلع العام ٤٦م كان الحروي قد خرج من السجن، ثم تزوج وفر إلى عدن، ملتحقا برفاقه نعمان والزبيري وغيرهما.

كان الأحرار ينشرون أعمالهم السياسية والثقافية من مطبوعات وصحف وكتب مستعينين بأصدقائهم وزملائهم، سواء في عدن أم القاهرة؛ لكن ذلك لا يكفي لتحقيق الأهداف المرسومة، ثم إن هؤلاء الأصدقاء قد تتغير مواقفهم بتغيرات السياسات نفسها، وإذن فلا بد من مطبعة خاصة بهم، تعزز من فاعلية العمل، وتضمن استمرار صدور الصحيفة الصادرة عن الجمعية باستمرار. هكذا كان تفكير الأستاذين، نعمان والزبيري، ولكن المال عائق كبير، فلا يملكان قيمة المطبعة.

في ليلة من ليالي عدن النضالية تداول القوم الحديث عن أهمية شراء مطبعة خاصة بهم، وما كان من جازم الحروي إلا أن قال: دعوا الأمر علي.

سفر جازم الحروي إلى الحبشة

إن شراء مطبعة خاصة بالأحرار ليس بالأمر بالسهل، فثمنها غير مقدور عليه من الجميع، ولكن إذا وجدت الإرادة فلا مستحيل معها. غادر جازم الحروي عدن إلى الحبشة، ليلتقي باليمنيين المهاجرين والعاملين هناك من تجار وعمال وغيرهم، مستعينا بصديقه أحمد عبده ناشر العريقي، فيجمع منهم قيمة مطبعة خاصة بالأحرار، وفعلا كان ذلك. وحين تم

تجهيز المبلغ اتصل الأستاذ نعمان بالأستاذ محمد صالح المسمري المقيم حينها في القاهرة، ليبحث له عن مطبعة مستعملة، ويرسل بمواصفاتها، ووقع اختياره على مطبعة مستعملة تتبع مطبعة نهضة مصر، وسافر جازم الحروي إلى القاهرة لاستلامها وشحنها إلى عدن. وعقب وصولها إلى عدن أرسل أحمد عبده ناشر العريقي خبيرا فنيا لتشغيلها وتدريب عناصر جديدة لتشغيلها، هو عبدالله طاهر، المقيم في الحبشة، وقد وصل قبله سعيد الدمشقي الذي عمل على تركيب أجزائها ليلة وصولها، قادما من صنعاء.[1]

وقد لعبت المطبعة دورا تنويريا وسياسيا كبيرا خلال الفترة التي لحقتها حتى قيام ثورة ٤٨م. وسماها الأحرار مطبعة النهضة اليمانية.

وهكذا استطاع رأس المال الحجري في عدن والحبشة وضع اللبنات الأولى في مسيرة النضال من خلال هذه المطبعة التي أقضت مضجع السيف أحمد، وتفاجأ بخبرها..!

(1) ــ تم تدريب كل من: عبدالله عبدالوهاب نعمان، وعبدالرحمن أحمد قاسم، وحسين عبدالحق، ومحمد عبدالله الفسيل. وكانوا بعد ذلك هم الفنيون المختصون بالطباعة.

أحمد عبده ناشر العريقي

يُعتبر أحمد عبده ناشر العريقي من أبرز التجار والنشطاء السياسيين اليمنيين في الحبشة الذين أسهموا إسهاما كبيرا على الصعيد الاجتماعي الخيري ثم السياسي والثقافي معا منذ مطلع الثلاثينيات؛ حيث كان عضوا في جمعية التعاون اليمنية التي أسسها الشيخ ناشر عبدالرحمن في عدن، وفي نادي الإصلاح العربي قبل أن ينتقل إلى أديس أبابا التي أسس فيها «جمعية الاتحاد والترقي العريقي»[1] في الحبشة، التي يبدو أنها تأثرت باسم «جمعية الاتحاد والترقي» السياسية التركية التي أسسها بهاء الدين شاكر، لمعارضة الخلافة العثمانية مطلع القرن العشرين.

هذه التجمعات والتكتلات ــ وإن تبدت في صورة جمعيات خيرية اجتماعية ــ إلا أنها إلى جانب ذلك تضمنت أنشطة سياسية وتثقيفية لليمنيين في المهجر، وتعتبر صحيفة «صوت اليمن» الصادرة عن الجمعية اليمانية الكبرى فكرته التي اقترحها على الأستاذين، كما أشار إلى ذلك عبدالغني مطهر في كتابه «يوم ولد اليمن مجده»، ثم تمويله، أو المساهمة في التمويل على الأقل.[2]

صدرت صحيفة «صوت اليمن» لأول مرة في ٣١ أكتوبر ١٩٤٦م، ممولة من عرق وكد أبناء الحجرية في المهجر، الحمّال في الميناء، والسكرتير في المكتب، والتاجر في الدكان والنادل في المطعم والعامل في البوفية، كلهم على حد سواء ساهموا في إصدارها، وجميعهم لم ينسوا قضية الوطن الكبرى مع أن بعضهم قد استقر عائليا هناك واستوطن؛ فمولوا من هناك إصدار الصحيفة المناهضة للنظام الكهنوتي الرجعي، التي أقضت

(1) ــ بحسب الباحث العزي الصلوي، فإن من أهم أغراضها الصرف على المحتاجين في المهجر وتعليم أبنائهم ومساعدة من يريد منهم العودة للوطن.

(2) ــ انظر: يوم ولد اليمن مجده، عبدالغني مطهر، د، ت، د، د، 17.

مضجع السيف أحمد في تعز والذي يعرف عن طريق جواسيسه الأحوال المادية لرموز المقاومة هناك: نعمان والزبيري ورفاقهما.

تلك الصحيفة كانت كوة الضوء الأولى التي انطلقت منها بشائر الوعد وملامح النصر القادم، وكانت تصل صنعاء سرا، ولسريتها يتم الإقبال عليها بتلهف كبير، فتُقرأ كاملة وتُناقش، وتكون مادة سياسية في دواوين القات في صنعاء وذمار وإب وتعز. في وقت لا صحف فيه ولا مجلات ولا إذاعات عدا إذاعة وصحيفة الإمام فقط..!!

تلك الصحيفة التي أهاجت الطاغية «أحمد»، والتي شكلت بواكير الوعي الثوري مكتوبا، كانت من تمويل أبناء الحجرية في المهجر.

ناشر يتحمل نفقات السيف إبراهيم

كان السيف إبراهيم[1]، نجل الطاغية يحيى حميدالدين قد ضاق ذرعا بتصرفات والده التي تبعث على الاستغراب والعجب، والتي لا تنتمي لقاموس العصر أساسا، وقد أراد الالتحاق بالأحرار المناوئين لحكم والده في عدن، فدبر حيلة للخروج أولا إلى الحبشة بغرض العلاج، ومن ثم الالتحاق بالأحرار، ويُقال: أنه أراد الذهاب إلى مكة المكرمة للإقامة فيها، فمر على الحبشة، وهناك ــ كما يذكر علي محمد عبده ـ قرر الانضمام إلى حركة الأحرار، بعد أن سلمه أحمد عبده ناشر رسالة كان قد بعث بها إليه الزبيري ونعمان، يدعوانه للانضمام إليهم، فسلمها ناشر لسكرتيره المرافق له أحمد البراق، ثم دخل على الأمير، فاطلع على الرسالة، ورد: «أنا مستعدٌ أنضم إلى الجمعية اليمنية الكبرى، ولكن لا لإصدار صوت اليمن، وغيرها من النشرات؛ بل للقيام بحركةٍ، لأحررَ الشعبَ اليمني من الطغيان، بعد أن

(1) ــ كان لقبه السابق سيف الإسلام، وحين انضم للثوار، سحب والده عنه اللقب، فخلع عليه الأحرار لقب «سيف الحَق» بدلا عن سيف الإسلام، اللقب الرسمي لأولاد الإمام.

أصبح الإمام آلة بيد أولاده، وبمقدوري تجهيز مئة ألف مقاتل، فقط أريد من رجال الجمعية المال والسلاح».[1]

فرد عليه أحمد عبده ناشر: «اطمئن، وأؤكد لك أنك متى تزعمتَ الحركة فإنّ السلاحَ والمالَ سيوجدان، المهم أولا انضمامك إلى الحركة وتزعمها».[2]

تم التواصل مع الأحرار إلى عدن والترتيب لاستقباله، ورتب له الأحرار سكنا، كما اشتروا له سيارة خاصة به، وتكاليفها بالتأكيد على نفقة المهاجرين التجار في الحبشة، فوصل عدن في يوم الأربعاء ٢٧ نوفمبر، ١٩٤٦م، وحين علم والده بذلك قطع عنه نفقته المعينة له، فتعهد التاجر أحمد عبده ناشر أمين صندوق المهاجرين مع رفيقه التاجر عبدالقوي الخرباش بتحمل نفقات الأمير في عدن، وإرسالها شهريا من الحبشة، مقابل أن يبقى ضمن قوام المعارضة.

وكانا ـ ناشر والخرباش ـ يزودان الأمير شهريا ببلغ وقدره تسعمئة روبية شهريا، تقاسماها فيما بينهما، وكانت تصرف بواسطة أمين مال الجمعية عبدالعزيز الحروي؛ إذ كانت فواتير إقامته ومأكله في فندق «إحسان» تُدفعُ أولا بأول، وعندما انتقل للطابق الذي خصص لإقامته في دار الجمعية استمرت مخصصاته الشهرية تُدفع له بانتظام، دون أن يكون لديه أي علم أو معرفة بمن يدفع له ذلك، أو كيف دبرت له أموره المالية.[3]

(1) ـ لمحات من تاريخ حركة الأحرار اليمنيين، 268/1.

(2) ـ نفسه، 268.

(3) ـ نفسه، 270.

عبدالغني مطهر

في منتصف الأربعينيات كانت قد برزت شخصية شابة ومتحمسة بعنفوان الشباب هي شخصية عبدالغني مطهر، والذي عمل مساعدا لأمين صندوق المهاجرين، الذي كان يمد الأحرار بالمال حتى قيام ثورة ٤٨م، فما بعدها أيضا، وكان ضمن تشكيلة اللجنة التأسيسية للأحرار التي تشكلت سرا في العام ١٩٥٨م في تعز، وكانت تسمى خلية تعز، وترأسها مطهر. ومن خلالها خدم قضيته بكل وفاء وإخلاص من خلال عمله التجاري في شركة المحروقات وشركة الطيران اليمنية. ومثّل منزله محطة ومأوى للثوار الأحرار القادمين من إب أو صنعاء أو الخارج، مع توفير ما يحتاجون إليه من ماله الخاص حتى بعد قيام الثورة. والحقيقة أن أدواره النضالية أكبر من أن تختزل في إشارة عابرة هنا.

إنَّ طلقاتِ الرصاص التي اخترقت جسدَ الطاغية أحمد في الحديدة من مسدسي: العلفي واللقية كانت على نفقة المناضل عبدالغني مطهر، ومع هذا فقد تنكر له بعض رفقاء النضال وأودعوه سجن القلعة في صنعاء عقب قيام انقلاب/ حركة خمسة نوفمبر ٦٧م، ناسين أو متناسين نضالاته المشهودة منذ الأربعينيات بالمال والجهد.

ونسجل هنا شهادة اللواء عبدالله جزيلان، وهو بصدد الحديث عن رفد التجار من تعز لثورة ٢٦ سبتمبر عقب قيامها، يقول: «قال لي علي محمد سعيد: هل تريدون أي خدمة؟ أجبت: شكرا على مشاعركم الطيبة، وإن أمكن أن ترسلوا لنا ألف ريال لشراء بعض الذخائر وتموين الكلية الحربية ومدرسة الأسلحة، خصوصا وهناك نوع من محاولة تعطيل طلباتنا. قال: سيصلك ما طلبت في ظرف يومين. وجاء إلي الملازم أول علي عبدالمغني والملازم أول محمد مطهر والملازم أول ناجي علي الأشول، وقالوا: إن

الإخوة في تعز قد أرسلوا لكم ما طلبتم من مال، وإن العقيد حسن العمري قد أخذها وأخفاها، وإنهم سيقومون بإجراء ضده.. سمع الإخوة في تعز ما جرى فأرسلوا مبلغا آخر مع الأخ علي محمد سعيد، وأظن أحمد ناجي العديني، واستلمت منهما المبلغ في كيس من القماش «خيشة» وربطته خلف مقعد الدراجة.. ومضيت بها إلى الكلية الحربية..».[1]

(1) ـ التاريخ السري للثورة اليمنية، اللواء عبدالله جزيلان، منشورات العصر الحديث، ط:3، 1987م، 168.

محمد عبدالواسع حميد «الخويل»

المناضل محمد عبدالواسع حميد الأصبحي من أشهر الدبلوماسيين والمثقفين اليمنيين سابقا، وقد عاش جزءا كبيرا من بداية حياته في المنفى في كل من الصومال وجيبوتي وفرنسا، ومع هجرته هذه في المنافي إلا أنه كان يحمل بين جنبيه هم اليمن وهمومه، ولا نطيل في التقديم هنا؛ سنترك القارئ مع ما سطره هو بقلمه، في مذكراته المنشورة في صحيفة الجمهورية، عن تفاصيل تلك المرحلة النضالية، يقول: «أذكر عندما كنت في فرنسا، أنني كنت أجمع التبرعات فأسافر إلى الجزائر والمغرب، لأحصل على بعض المال وأرسله إلى الأستاذين النعمان والزبيري، وغالبًا ماكنت أكتشف أن ثمن تذاكر السفر الذي دفعته من جيبي الخاص هو أكبر من المبلغ الذي جمعته!!

وأذكر أنني كنت أطلب من صحيفة «صوت اليمن» التي صارت تصدر في القاهرة بعد أن كانت تصدر في عدن من عشرين إلى خمسين نسخة، لأبيعها للمغتربين، ولكني كنت لا أجد سوى خمسة أو ثمانية من المشتركين أو القراء، فأوزعها مجاناً، وأدفع ثمنها من جيبي الخاص، ولابد أن أذكر هنا أسماء من كانوا يقرأون ويدفعون وهم: المرحوم محمد محمد الرعدي والمرحوم محمد نعمان زيد العريقي والمرحوم صالح محمد الحدئي وعبدالوهاب عبدالملك العريقي.. وآخرهم المرحوم عبدالله أحمد عثمان الذبحاني.. هؤلاء هم وماعدا ذلك لم أكن أجد أحداً. وأذكر هنا محمد راجح كليب الذي كان يلقبه اليمنيون بالشعب اليمني؛ لأنه كان دائم التحدث عن الشعب اليمني، وكان يمثل الإخوان المسلمين كما عرفت ذلك من حديثه في عام ١٩٤٦م عندما مرّ بباخرة إلى جيبوتي، فشكوت له ما أعاني من اليمنيين على كثرتهم، فأجابني برسالة هذا بعض نصها: يا

ابـن أخـي يـا محمـد عبدالواسـع الـذي عنـدك هـو عنـدي، فـلا تـأس ولا تحـزن. أنـا اشـتركت بخمسـة أعـداد، أدفـع ثمنهـا وأوزعهـا مجانـا».[1]

(1) ــ انظـر: محمـد عبدالواسـع الأصبحـي يتذكـر، الحلقـة 26، علـى الرابـط: https://www.yemeress.com/algomhoriah/2054499

مشيخة آل نعمان

تُعتبر المشيخات والسلطنات ظاهرة تاريخية في التاريخ الاجتماعي العربي بشكل عام، وفي التاريخ اليمني بشكل خاص، وهي بالنسبة لليمنيين امتدادٌ للأذواء والأقيال التي عرفت في التاريخ القديم، مثلت ـ فيما مثلت ـ جزءا من جهاز الدولة السياسي والاجتماعي.

باستقراء تاريخ المشيخات والبيوتات الكبيرة في اليمن خلال النصف الأول من القرن العشرين، نجد أن مشيخة آل نعمان في الحجرية تكاد تتصدر كل البيوتات المشيخية، على مستوى اليمن، كما تصدرت أسرة آل الإرياني القضاء في إب. وآل نعمان ينتسبون إلى نعمان بن مقبل بن علي شمسان، وصولا إلى الحكم البنا. وموطن هذه الأسرة الأصل وادي بنا في النادرة من إب. هاجر جدهم الأول إلى الحجرية، واستقر في تربة ذبحان، وفيها حاز الزعامة الروحية الصوفية، وهي الأيديولوجية الثقافية والدينية السائدة في تلك الفترة، والمتوارثة عن صوفية الفقيه المجدد أحمد بن علوان، والتي آلت إلى الزعامة السياسية بعد ذلك حسب إشارة الكاتب عبدالله علوان، رحمه الله في تقديمه لكتاب «الفكر والموقف»، الأعمال الكاملة للأستاذ محمد أحمد نعمان الذي جمعه الأستاذ لطفي نعمان. والمفكر الشاب محمد أحمد نعمان «الابن» هو صاحب فكرة الجمهورية، وأول من اقترح فكرة تغيير النظام برمته، لا إصلاحه.

جمع آل نعمان بين المشيخة القبلية والسياسة، كما تميزوا بسعة الثقافة والتضلع في الأدب والشعر، على نحو نادر، من بين أغلب المشيخات، ما جعلهم قريبين من جميع الناس؛ أي أنها مشيخة مستنيرة، مثقفة، سياسية، لا كتلك المشيخات التقليدية التي عرفت بها بعض المناطق الذي يمثل الشيخ فيها إماما آخر..! ولهذه المكانة منحت السلطاتُ العثمانية أيام

حكمها اليمن أحمد نعمان «عم الأستاذ» لقب «بك» حين كان «قائم مقام» الحجرية، وهو لقب لا يضيف له شيئا في الواقع، فمكانته الاجتماعية مستمدة من محيطه الاجتماعي لا من هذا الحاكم أو ذاك. وقد كان لهذه الأسرة ـ ولا يزال ـ ميولات صوفية مكتسبة، توارثوها عن الآباء والأجداد، كما هو الشأن مع أغلب الأسر في تلك المنطقة وغيرها من مناطق اليمن التي تأثرت بصوفية الدولة الرسولية، بما تكتنزه الصوفية من القيم الإنسانية والأخلاقية النادرة. وهي قيم عززت في الناس الزهد في جانبه الإيجابي، كما عززت فيهم روح المقاومة والكفاح للظلم، لأن المتفاني روحيا في الذات العلية لا يستسيغ عبودية البشر مهما كان. روح الصوفي تصمد بشموخ في مقاومة أعاصير الحياة.

منذ البواكير الأولى لنضال اليمنيين ناوءت مشيخة آل نعمان بالحجرية طغيان الإمامة، إلى حد أنه ما ذكر النضال اليمني إلا وتبادر إلى الذهن مباشرة اسم الأستاذ نعمان، مقرونا بنجله محمد، وبالشيخ المناضل أمين عبدالواسع نعمان الذي لعب أدوارا بطولية نضالية، لم يُكتب عنها حتى الآن،[1] قال عنه المقحفي: أنه من العناصر الوطنية التي أسهمت بنصيب كبير في الحركة الوطنية، وكان من ضمن المخططين لمحاولة اغتيال الإمام أحمد في الحديدة عام ١٩٦١م التي قادها العلفي واللقية والهندوانة، وقد تولى بعد ثورة سبتمبر أعمالا قيادية، منها وزيرا للدولة، ووزيرا للزراعة، ثم تولى مسؤولية محافظ الحديدة، ثم محافظ تعز.[2]

كما هو الشأن مع الشيخ علي محمد نعمان، الأخ الأكبر للأستاذ، ومن أوائل شهداء ثورة ٢٦ سبتمبر الذين ثاروا ضد الإمامة، وكان عاملا على حرض حينها، وأيضا الشيخ عبدالوهاب نعمان الذي أعدمه الطاغية أحمد

(1) ـ كان والده الشيخ عبدالواسع ميالا للتصوف، وقد توفي سنة 1340هـ، حسبما ذكر المقحفي في معجم البلدان والقبائل اليمنية.

(2) ـ معجم البلدان والقبائل اليمنية، المقحفي، 1747/2.

عقب فشل ثورة ٤٨م، ثم نجله الأديب الشاعر عبدالله عبدالوهاب نعمان «الفضول» كاتب النشيد الوطني؛ بل إنه في العام ١٩٤٤م، عام الاعتقالات اعتقل الإمام يحيى أحد عشر فردا من أقارب الأستاذ نعمان، حسبما ذكر علي محمد عبده، من أصل سبعين معتقلا، موزعين على كل أحرار البلاد.[1]

مشيخة آل نعمان مشيخة مدنية، ناضلت وظلت وفية لنضالها ولليمن، ولم تفعل كما فعلت بعض المشيخات الأخرى من «حُمران العيون» التي أكلت ابن الأتان لقاء أتعابها[2]..! وعن هذه الأسرة توارث الجيل الجديد الفكر والسياسة والأدب والشعر، وقبل هذا القيم المدنية الراقية، ولا تزال هذه الأسرة حتى اليوم في حومة النضال، كموقف أخلاقي وسياسي لم تنفك عنه.

نعمان.. نزاهة مالية ونباهة سياسية

ثلاثة مواقف تاريخية تحسب للأستاذ نعمان ضمن سجله الوطني الخالد، وتضطرنا ظروف هذه المحطة التوقف عندها، ونحن نتأمل سفر نضاله الكبير:

الأول: العلاقة الأخوية الصادقة والمخلصة مع رفيق دربه الشهيد محمد محمود الزبيري رحمه الله، وقد كانا كبيرَين بحجم القضية الوطنية؛ فلم يكونا يبحثان عن المناصب، بقدر ما كانا يبحثان عن العمل للقضية الوطنية الجامعة، ففي حزب الأحرار سابقا كان الرئيس هو الأستاذ نعمان، وكان المدير الأستاذ الزبيري، وفي الجمعية «المحطة التالية له» كان الرئيس هو الزبيري، قبل أن تؤول رئاستها إلى السيف إبراهيم، فيما كان نعمان أمينها

(1) ـ لمحات، سابق، 223/1.

(2) ـ إشارة إلى الأسطورة الشعبية السائدة التي تقول: ضاع ابن الأتان «أنثى الحمار» وظلت تبحث عنه حزينة، وفجأة رآها الضبع وقد عرف حالها، فقال لها: وجدت ابنك الضال يا أتان. فاستبشرت خيرا، متسائلة: وأين هو؟ فرد عليها: أكلته لقاء أتعابي..!! وما أكثر الضباع من هذا النوع ممن نهشوا في جسد الوطن لقاء بعض المواقف التي تعمدوا تسجيلها لتمثل لهم مدخلا للاستغلال.

العام، وهذا هو التكامل المثالي الذي لعباه بروح الصدق والإخاء والانتماء لشرف القضية، رغم أنّ المالَ الذي دعم الحزب، ثم الجمعية خلال هذه الفترة كان أغلبه ــ إن لم يكن كله ــ عن طريق الأستاذ نعمان، بواسطة معارفه التجار في عدن والحبشة، والصومال وجيبوتي، لثقتهم المطلقة به، وبحسب المناضل محمد عبدالواسع الأصبحي (الخويل): «لم يكن المغتربون يثقون إلا بالأستاذ نعمان، ولم يكونوا يرسلون تبرعاتهم إلا له، سواء أكانوا من لواء إب أو من لواء تعز أو من صنعاء». ومع ذلك لم يسْعَ ليكونَ هو المتصدرُ دومًا، بما له من فضلٍ على رفاقه، وعلى القضية بشكل عام. تأتي هذه العلاقة الوطيدة والمشاعر الحميمة بين الرجلين رغم المكائد التي كادها البعضُ لهما، والوشاياتِ التي حرصوا عليها للتفريق بينهما، ورغم الاتهامات التي طالتهما معًا أيضا، كما ذكر الأستاذ نعمان، وكما أشار إلى ذلك الزبيري أيضا. وقد ذكر الزبيري أن ترخيص صحيفة «صوت اليمن» الذي استخرجه في القاهرة قد ظل في الرف حوالي سنة كاملة، إذ لم يجد من يتبنى إصدارها ولا نفقاتها، وحين لحقه الأستاذ نعمان إلى هناك ــ في فترتهما القاهرية ــ صدرت الصحيفة بعد وصوله بستة أيام.[1]

الثاني: مقدار النزاهة المالية الكبيرة التي تميز بها الاثنان، على الرغم من أن المال بين أيديهما؛ لكنه مال عام، لصالح القضية، لا لصالح الأشخاص. يقول الأستاذ نعمان: قد أتضورُ جوعًا، لكيلا أنفق أي مبلغ إلا في سبيل القضية، في طباعة، في نشر، في برقيات، في مذكرات، لمن يعمل «في مقابل عمله»، وأنا مع أولادي نعيش في عدن كأبأس المخلوقين. وكان الزبيري يعرفُ الحقيقة ويشاركنا هذا.[2]

(1) ــ نعمان الصانع الأول لقضية الأحرار، محمد محمود الزبيري، الاتحاد اليمني، د. ت، 21. وانظر أيضا: يوم ولد اليمن مجده، عبدالغني مطهر، 19.

(2) ــ مذكرات أحمد محمد نعمان، 143.

هـذا الـكلام ليـس مـن قبيـل الادعـاء الـذي يدعيـه البعـضُ لأنفسـهم؛ بـل حقيقـة صادقـة، فقـد عُـرف نعمـان بقـوة الترشـيد المالـي، سـواء علـى نفسـه مـن مالـه الخـاص، أم علـى الغيـر، ولهـذا حـاز كل هـذه الثقـة الكبيـرة بيـن اليمنييـن فـي عـدن، وفـي المهجـر، لنزاهتـه الماليـة قبـل مكانتـه الاجتماعيـة؛ كونـه مـن أسـرة مشـيخ، هـي مرجعيـة قضـاء الحجريـة كامـلا. كان بوسـعه أن يثـرى، وأن يسـتحوذ علـى جـزء مـن تلـك الأمـوال علـى الأقـل دون أن يعـرف أحـد؛ لكنـه لـم يفعـل، منحـازًا إلـى المبـدأ الأخلاقـي، لا إلـى المصلحـة الذاتيـة.

الثالـث: حصافـة الأسـتاذ نعمـان ونباهتـه وحـذره الشـديد، وهـي ميـزة السياسـي النبيـه؛ إذ ظـل طـوال هـذه السـنوات محتفظـا بسـرية التبرعـات التـي تصـل لصالـح القضيـة، ولـم يُطلـع عليهـا أحـدًا غيـر الزبيري فقـط، لثقتـه المطلقة بـه، رغـم المطالبـات المسـتمرة التـي تتناوشُـه بالكشـف عـن مصـدر الأمـوال التـي يتحصـل عليهـا، لمعرفتـه أن ثمـة ذئابًـا فـي ثيـاب الحُمـلان، وأنـه إذا كان البعـضُ صادقًـا فـي هـذه المطالبـة، فثمـة آخـرون متربصون، يكيـدون لـه ولرفيقه وللرجـال المخلصيـن أيضـا المكائـد، ويبحثـون عـن كل شـاردة وواردة، ليبلغـوا بهـا ولـي العهـد، متظاهريـن بالوطنيـة وبمـوالاة الأحـرار، فظـل وفيًـا، محافظـا علـى السـر، متحمّـلا الأذى والاتهـام مـن الأصدقـاء قبـل الأعـداء. أضـف إلـى ذلـك مـا كان مـن الـدروس السـابقة مـن الأخطـاء التـي كان قـد وقعـت فيهـا هيئـة النضـال وجمعيـة الإصـلاح، وكلتاهمـا تعرضتـا لعيـون الجواسـيس وآذانهـم، كمـا أن رجالهـا قـد ألقـي عليهـم القبـض، وأودعـوا سـجون الإمـام، بسـبب عـدم نباهـة قيـادة الجماعتيـن. والعاقـل مـن اتعـظ بغيـره، كمـا يُقـال.[1]

(1) ــ تـم تحويـل التبرعـات والهبـات لاحقـا باسـم الزبيـري رسـميا، بعـد جـدل طويـل تزعمـه الفسـيل، ثـم أحمـد البـراق الـذي تأثـر بـه، كمـا نشـرت ذلـك صحيفـة صـوت اليمـن فـي عددهـا رقـم 20، بتاريـخ 25 ابريـل، 1947م. ومـع هـذا الإعـلان إلا أن البعـض ظـل يرسـل تبرعاتـه بأسـم الأسـتاذ نعمـان، لثقتهـم بـه. وانظـر فـي هـذا كتابنـا: 26 سـبتمبر المسـيرة والميـلاد محطـات مـن نضـال الأحـرار، وزارة الأوقـاف والإرشـاد، ط: آ، 2021م.

الحجرية..
عروق التاريخ وروح الجغرافيا

للأمكنة الجغرافية شخصياتها الخاصة بها، كما هو الشأن مع شخصية الإنسان نفسه. المكان بما هو نص بصري، وبما هو امتداد تاريخي، وبما هو لوحة ناطقة، منظورا ومسطورا.

والمكان ذاته مساهم بصورة مباشرة في صياغة الشخصية الإنسانية كما يقرر علماء الأنثروبولوجيا، ومنه تكتسب الشخصيات طبائعها وعاداتها وجزءا كبيرا من تفاصيل وفلسفة حياتها.

الأمكنة في حد ذاتها حاكمة، وعلى الصعيد العسكري فإن المكانَ أحدُ صانعي النصر أو الهزيمة في الملاحم الحربية، وحول هذه الفكرة تبلورت نظرية العالم الجغرافي الشهير «ماكيندر» المسماة بنظرية «قلب العالم»، أو «قلب الأرض». كما دارت فكرة روبرت كابلان «انتقام الجغرافيا» حول هذا المعنى أيضا، ولم تبتعد عنها.

إلى مطلع القرن العشرين والحجرية هي قلب تعز، وإن شئت قل روحه، أفادت كثيرا من عدن حاضرة الشرق الأوسط في تلك الفترة، وتشكل جزء من شخصيتها من هذا التأثر، عن طريق أغلب الشباب الريفي الذي هاجر إلى عدن، وفيها رأى ما لم يره في مدن الشمال التي لا يُطلق عليها اسم «مدن» إلى من قبيل المجاز فقط، وإلا فهي إلى القرى الكبيرة أقرب، ذلك أن الإمامة هي ضد المدنية والتمدن أساسا.

كانت الصوفية بنقائها الروحي وفلسفتها الأخلاقية هي التي تحتل زخم

المكان والزمان لعقود طويلة في أجزاء واسعة من اليمن، من المخلاف السكسكي، وتمتد أيضا إلى ريمة ووصابين وعتمة وبرع وأجزاء واسعة من تهامة، وربما كانت الحجرية هي الأكثر تأثرا بها؛ كون الفقيه الصوفي أحمد بن علوان اليفرسي ينتسب إليها، ومنها انطلقت دعوته في كثير من الأرجاء، فشكلت الأيديولوجيا الصوفية أحد روافع البناء الإيجابي في الشخصية «الحجرية»، لاسيما وصوفية أحمد بن علوان نقية صافية في غالبها، فعرف عن ابن الحجرية النشاط والجد والاجتهاد، واحترام قيم العمل والحقوق، وهي صفة لازمتهم كثيرا أينما حلوا، وصار «الحجري» مضربَ المثل في النشاط وفي الترشيد المالي، وفي الاهتمام بالعلم، وهي أحد انعكاسات الثقافة الصوفية في منحاها الإيجابي، مع الحس المدني المتجذر حميما في العقل الباطن للمجتمع.

عنصران اثنان شكلا المزاج النفسي لابن الحجرية: المكان بصلابته الجغرافية وجبروته التاريخي، ثم الثقافة المتكونة من شقين: الصوفية التقليدية المتوارثة والثقافة الجديدة الوافدة التي تشكلت منذ مطلع القرن العشرين، كل هذا امتزج ببعضه، فكانت تلك الروح المتفانية نشاطا واجتهادا.

من هنا تشكل المال لديهم، ومع المال والثراء تشكلت أيضا روح السلم والميل إلى الموادعة والاحتكام لقيم الدين وأعراف المجتمع، فقلما تجد منهم عاطلا عن العمل، أو متسولا أو متعصبا، عدا ما طرأ من إفرازات السنوات الأخيرة من بعض السلبيات التي أفرزتها السياسات الفاشلة للدولة والحروب. وبحسب الزميل عادل الأحمدي، متحدثا عن الحجرية: «مجتمع كله أرقام صحيحة. كلهم صناع حياة، صغيرهم والكبير، المليادير وصاحب المحلاية، وسائق الشاحنات في الخط الطويل، الشيخ والطفل والمرأة، السابقون والمعاصرون واللاحقون".

منذ بداية تحكم الطاغية يحيى حميدالدين على اليمن، سلط على

الحجرية أحد أقاربه المدعو الأمير علي الوزير، وكان الأخير يعتبر نفسه شريكا للطاغية يحيى في حكم اليمن، لا مجرد موظف، فاستبد بالناس وطغى، متعاملا مع الناس بذهنية «السيد والعبد» من حقه أن يأمر وينهى، ومن واجبهم أن يسمعوا ويطيعوا فقط. هكذا هو معتقد الإمامة أساسا في الحكم، ومثله فعل بقية نواب الإمام وعماله على بقية المناطق، إلا أن نائبه على تعز علي الوزير كان أشدهم بطشا وطغيانا واستبدادا. ومع تغوله في القهر والاستبداد كانت شدة الرفض والمقاومة لهذا الفجور الإمامي البغيض، من معالم ذلك الرفض الهجرة ومغادرة البلاد نهائيا، على ألا يستكين أهلها للإذلال. فكانت عدن، ثم الحبشة وجيبوتي والصومال ونيروبي محطات لهجرة الكثير من شباب الحجرية ورجالها، بثقاتهم المحلية التي أضافوا إليها ثقافة تلك البلاد، فأكسبتهم رصيدا جديدا إلى رصيدهم السابق. ومنهما تشكلت خبراتهم بعد ذلك، وتوارثها عنهم أجيالهم.

لقد تصالحوا مع المكان الجديد في الحبشة وجيبوتي والصومال والهضاب الداخلية من شرق أفريقيا بروح إيجابية على اكفهرار وجه المكان أحيانا، وتكيفوا مع كل المتغيرات التي صنعت من كل إنسان منهم رجل إنتاج وداعية سلام. «والسلام» اسم صحيفة أسسها في كارديف ببريطانيا ابن الحجرية الشيخ المتصوف عبدالله الحكيمي. ومع تصالحهم مع كل مكان يصلون إليه خارج اليمن إلا أنهم يظلون متشبثين وجدانيا بعروق الأرض التي أنبتت لحومهم، وتكونت منها نفسياتهم، الضاربة بجذورها إلى جدودهم الأوائل الملوك من نسل الملك معافر بن يعفر في القرن السابع قبل الميلاد، والمتصل بكهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان[1]. وإلى معافر ين يعفر ينتسب أيضا ملوك الدولة العامرية في

(1) ـ هناك من يربط المعافر بحِمْيَرَ. انظر كتاب المعافريون في الأندلس، سناء الترب.

الأندلس، التي أسسها المنصور بن أبي عامر المعافري هناك، ومثل إنقاذا كبيرا وعلامة فارقة من التحول الحضاري في الأندلس، وكادت الإمارة العربية آنذاك على مشارف السقوط.

الصدمة الإيجابية

في كتابه دراسة للتاريخ يتحدث المؤرخ والفيلسوف البريطاني آرنولد توينبي عما يسميه الصدمة في حياة الشعوب، أو التحدي والاستجابة. "فالفرد الذي يتعرَّضُ لصدمةٍ قد يفقدُ توازُنَه لفترةٍ ما، ثم قد يستجيبُ لها بنوعين من الاستجابة: الأُولى النكوص إلى الماضي لاستعادته والتمسُّك به تعويضًا عن واقعه المُرّ، فيُصبح انطوائيًّا؛ والثانية، تقبُّل هذه الصدمة والاعتراف بها ثم مُحاولة التغلُّب عليها، فيكون في هذه الحالة انبساطيًّا. فالحالة الأولى تُعتَبرُ استجابةً سلبيَّة، والثانية إيجابيَّة بالنسبة لعلم النفس. لاحظْ أنَّ ذلك ينطبقُ على حالة العرب، فإنَّهم تعرَّضوا لصدمة الحضارة، فلجأوا إلى النكوص إلى الماضي دفاعًا عن النفس».

كانت صدمة الحجرية تجاه ما حصل لهم من قهر واستعباد خلال عشرين عاما من إمارة علي الوزير على تعز، ونصفها من ولي العهد أحمد إيجابية، من خلال الطاقة الكامنة التي تكتنز بها تلك الروح والتي تعمل على تحقيق الذات برد فعل إيجابي أكبر من طاقة التحدي نفسه؛ أي التعامل الإيجابي مع التحدي الذي واجهوه، فالعصَا الغليظة التي ترفع أمام الجمهور تذلُّ ذوي النفوس الضعيفة؛ لكنها تستفز الأحرار. ولو تأملنا حركة التاريخ وأحداثه العظمى في التحولات والصيرورات لوجدناها قائمة أساسا على فلسفة الفعل ورد الفعل، وقد فصلت قوانين الجدل الهيجلي هذه الحقيقة في ثلاثة قوانين تبناها ماركس وانجلز بعده، وعليها بنوا نظريتهم وفكرهم فيما بعد.

وهكذا تتوالد الأحداث الكبرى من المتغيرات الكبرى في الحياة، سواء كانت من أحداث الطبيعة ذاتها التي تصنع تحديا أكبر، كما هو الشأن مع الإنسان الياباني الذي تحدى طبيعته القاسية بإبداع من وحي هذا التحدي، أو من أحداث الإنسان نفسه، كما هو الشأن مع ألمانيا التي امتصت صدمتها إيجابيا بعد الحرب العالمية الثانية، وتحولت إلى دولة عظمى، وقد كانت في حكم الموات عقب انتهاء الحرب التي هُزمت فيها. وما ينطبق على هذه الشعوب باتساعها ينطبق أيضا على المجتمعات الصغيرة بمحدوديتها.

لقد قُمعت كثيرٌ من المجتمعات والجهات، فكانت صدمتها سلبية بحسب إشارة «توينبي»، إذ خضعت خضوعا مبالغا فيه، بعد أن كانت شامخة شموخا مبالغا فيه، وإلى هذه الفكرة أشار البردوني في كتابه اليمن الجمهوري إلى صراع الزرانيق مع الإمام بقوله: «فهم أشرس من تمرد وأطوع من خضع للغالب». ١٢٦. وهذه هنا هي الصدمة السلبية التي تحدث عنها توينبي.

لقد ظلت الحجرية سيدة الزمان والمكان ثقافيا واقتصاديا لعقود، حتى برز لاعبون آخرون، أكثر ذكاء؛ لكنهم أقل أخلاقية، فغلبت على أمرها؛ لأن منطق الصراع يقرر أن الفوز في الصراعات السياسية للأكثر ذكاء، لا للأكثر أخلاقا بحسب إشارة الفيلسوف المؤرخ جوستاف لوبون في كتابه: السنن النفسية لتطور الأمم.

تحولت صناعة الأحداث الكبيرة على الأقل داخل تعز إلى مجتمع آخر غير الحجرية بنسبة ملحوظة وقد كانت المتسيدة في ذلك؛ لكن هل سيستمر هذا التسيد؟

لا شكَّ أنه تحول يحمل بذرة فنائه بداخله، لأنه تحول قائم على براجماتية مبالغ في نفعيتها، صحيح أن الفوز للأذكى؛ لكن البقاء للأصلح،

إنما من يعي هذه الحقائق، وخاصة إذا لعلعت أصوات البندقيات وهدرت فوهات المدافع؟! لا أحد يسمع أحداً في هذا الضجيج، ناهيك عن أن يعقل أو يتأمل..!

وعلى أية حال.. سيظل تاريخ المؤسسات الاقتصادية ومعالم البنى الإعلامية والثقافية وبدايات الأحزاب السياسية في اليمن شاهدًا حيًّا مدى الحياة على عظمة ابن الحجرية، والذي وضع اللبنات الأولى في مختلف هذه المجالات، ثم تعهدها بماء أفكاره حتى ترعرعت وصارت تاريخا يُحكى وأمجادا تُروى.

مهما يكن.. هذا التأخر للحجرية خلال ربع القرن الجديد سيظل خميرة كامنة تحملها مواليد الأجيال القادمة؛ لأن كل مجتمع ــ كما يقول البردوني: «يخرج إلى عادات وقيم يرضعها مع لبن الأم، ثم تكوّن سلوكه، كما يكوّن منها ضميره الأخلاقي وتقاليد عيشه وأسلوب تفكيره وتعبيره».

الحجرية.. عطاء مستمر

لطبيعة الأخلاق المدنية الراقية التي يحملها ابنُ الحجرية بأصالته وتمدنه ورقيه فقد ظل تبرعهم المالي قائما حتى بعد فشل الثورة، ولم يصبهم اليأس جراء ما حدث؛ بل لقد قرروا رعاية أبناء الثوار الذين أعدمهم الطاغية أحمد أو ألقى بهم في السجن، وأيضا مواصلة التبرعات كما كانت لصالح القضية الوطنية. وذلك لرفع الروح المعنوية لدى المناضلين، ودفع المسيرة الوطنية إلى الأمام حتى تحقق أهدافها، كما يذكر عبدالغني مطهر في مذكراته.[1] فكان هؤلاء التجار بمثابة الآباء والأخوة الكبار لعائلات المناضلين وأبنائهم، ناهيك عمن استضافوهم من الأحرار في الحبشة على نفقتهم، حفاظا على روحهم المعنوية، وعلى مسيرة النضال مستمرة، وهو ما كان فعلا، فعلى الرغم من الظروف الخانقة التي مر بها الأحرار بعد فشل ثورة الدستور عام ٤٨م إلا أن جذوة الأمل لم يخبُ أوارها، وروح التحدي ظلت كامنة في صدور الأحرار حتى تحقق اليوم المنشود للجميع.

وعلى قصر حكومة الدستور عقب ثورة ٤٨م فقد قامت على مال التاجر

(1) ــ يوم ولد اليمن مجده، 29. ومن الطرائف المتعلقة به، والتي ذكرها أنه حين وصل إلى جيبوتي من فرنسا وصله خطاب من الأستاذ نعمان يقول له: إياك أن تعود إلى اليمن، مهما كانت الدوافع والبواعث، لأن الجنّاتي وعلي عاصم سرقا كل الوثائق التي للأحرار وسلّماها للإمام لكي يتوظفا لديه. فأراد العودة إلى فرنسا، إلا أن خطابا جاءه من أحد أصدقائه في فرنسا يقول له: إياك أن تعود إلى فرنسا فقد جاء الفرنسيون يسألون عنك، لأنك كنت تساعد الجزائريين..! يقول: وأنا لم أكن أساعد الجزائريين، كنت أجتمع بهم فقط؛ أما المغاربة فقد ساعدتهم، هذا صحيح، فقد كنت أهرّب نقوداً من طنجة إلى مرسيليا، ومن مرسيليا إليهم، لكي يشتروا بها سلاحاً. هذا ما كنت أعمله؛ أما الجزائريون فلم أساعدهم، ولم يكن أحد يثق بأحد من غير الجزائريين الذين من حزبهم.. ظللت تائهاً، وأصبت بانهيار عصبي، والقصة طويلة جداً. ثم خرجت إلى عدن، ومنها عدت إلى جيبوتي، وبقيت هناك عشرة أشهر، ثم ذهبت على ما يقول المثل: قارب الشرّ تأمن. ذهبت مغامراً إلى الحجرية، وبعد أربعة أشهر ذهبت إلى تعز وليحدث ما يحدث.

عثمان قائد سلام الذي أقرض الإمام عبدالله الوزير قرضا كبيرا، وعقب سقوط إمامة الوزير أعلن هذا التاجر إفلاسه، وتاجر آخر اسمه عثمان قائد العريقي أنفق ما يزيد عن مئة ألف روبية، كما هو الشأن أيضا لدى التاجر شايف محمد سعيد الذي أنفق ثروته كلها في قضية انقلاب ١٩٥٥م وبعده، وفي دعم بعض الصحف والمنشورات خاصة؛ بل لقد دعم صحيفة صوت السلام التي كان يصدرها الشيخ عبدالله علي الحكيمي في لندن. وكان يمثل حلقة الوصل قبل ذلك بين الأحرار في عدن وفي المهجر، نظرا لنشاطه الدؤوب الذي لا يمل، ولروحه المتوثبة بالروح الوطنية.

لقد كانت تجارةُ الحجرية ــ وتحديدًا الأغابرة والأعروق ــ الرافد الرئيس لنضالات الأحرار اليمنيين منذ ثلاثينيات القرن الماضي، حتى قيام ثورة ٢٦ سبتمبر ٦٢م، وكان رأس المال الحجري هو عمود الاقتصاد الوطني بعد ذلك، وعلى رأسهم رجل الأعمال المعروف هايل سعيد أنعم العريقي، كما كانت الحجرية هي الرافد الأول بالخبرات والكفاءات العلمية والعملية التي انتشرت في شتى بلاد اليمن ما بين طبيب ومعلم وسياسي ومثقف وخباز ومصور وفنان وميكانيكي.. إلخ. ومعهم انتشرت قيم حب الخير واحترام العمل.

وعلى ذكر «الرجل الفاضل» هايل سعيد أنعم تجدر الإشارة إلى إسهاماته الخيرية والمجتمعية في أنحاء اليمن، من المعاهد والمدارس والجمعيات الخيرية والمنح الدراسية التي قدمتها مجموعة هايل سعيد أنعم لآلاف اليمنيين من شرقه وغربه، وشماله وجنوبه، بلا تعصب أو مناطقية، في الوقت الذي عرف الشعب مجموعات تجارية أخرى «كالنار الحمراء» تلتهم كل شيء، ولا تعطي شيئا. مع أن تجارة هؤلاء قد تكونت بطرق مشبوهة، فتراكمت بسرعة البرق، بحكم ارتباط هؤلاء «حمران العيون» بالدولة وتحكمهم بمفاصلها؛ لهذا يحظى هذا البيت التجاري العريق بسمعة

شعبية طيبة، واحترام كبير لدى العامة والخاصة، كون مشاريعه الخيرية تعم اليمن أجمع، فيما تجارة البعض قائمة على السحت والاحتكار والتهرب الضريبي، مضاف إلى ذلك صفرية مساهماتهم المجتمعية أو العلمية.

ويستذكر عبدالغني مطهر بعضا من الأسماء التجارية في المهجر التي دعمت نشاط الحركة الوطنية في بواكيره الأولى إلى جانب أحمد عبده ناشر، كلا من: الشيخ عبدالقوي الخرباش وأحمد العبسي ومحمد مهيوب عباس وشايف محمد سعيد صالح وغالب سعيد صالح والشيخ سالم عبيد باحبيشي والشيخ ناشر عبدالرحمن العريقي وإخوانه، ومحمد سلام حاجب وعبدالله ناجي ومحمد علي الأسودي ومحمد أحمد شعلان ومحمد علي الأسودي وجازم الحروي وعبدالرحمن عبدالرب وعلي حسين الوجيه. ومن خارج أبناء الحجرية أيضا الخادم غالب الوجيه.[1]

والواقع أنه يصعب حصر جميع التجار صغارا وكبارا من أبناء الحجرية في المهجر، أو حتى داخل الوطن الذين كان لهم إسهام إيجابي خلاق في مسيرة النضال الوطني، منذ مطلع القرن العشرين، ذلك أن بعض هذا العطاء لا يزال ممتدا إلى اليوم، مع بقية الرجال الأوفياء لوطنهم أيضا من مختلف مناطق اليمن، وليس من الحجرية فقط.

نتذكرُ الحجرية مقترنة بالتكنوقراط من رجالات الدولة.. بالأحزاب السياسية.. بالمقاولات.. بالتجارة.. بالهندسة.. بالأدب والفن.. بالاغتراب.. بزعامة المنصور بن أبي عامر المعافري.. بفقه مالك بن أنس الأصبحي.. بصوفية أحمد بن علوان.. بهائل سعيد أنعم وأعماله الخيرية.. بأول بنك

(1) ــ يوم ولد اليمن مجده، سابق، 21. الجدير بالذكر هنا أن الإمام أحمد بعد ثورة الدستور سنة 1948م أرسل مذكرة رسمية إلى الامبراطور الاثيوبي هيلاسلاسي، يطالب فيه بتسليم بعض الشخصيات إلى اليمن، بحجة «إجابة دعاوى خصومهم»، وهذه الشخصيات هم: أحمد عبده ناشر العريقي، مطهر سعيد العريقي، عبدالقوي الخرباش الأغبري، عبدالله عبدالغني الشوافي، عبداللطيف طارش، محمد علي الهريش، أحمد عبدالولي العبسي، محمد مهيوب، عباس الزبيري الفقيه، سيف حمود الذبحاني. ولذكاء الامبراطور فقد أحال الطلب على البرلمان، ولعلاقة الكثير من أعضاء البرلمان الطيبة بهذه النخبة فقد صوتوا ضد القبض عليهم وتسليمهم للطاغية أحمد.

مركزي.. بريادة الأستاذ نعمان النضالية والثورية.. بالنشيد الوطني للفضول.. بأنغام أيوب طارش.. بالجمهورية الفكرة لـ «محمد نعمان».. بمرونة محمد علي عثمان والمجلس السيادي الأول بعد الجمهورية.. بمشيخة قاسم بجاش القدسي.. بتفاني عبدالقوي حاميم.. بفكر أحمد الأصبحي.. بتضحيات عبدالغني مطهر.. بموقف عبدالرقيب عبدالوهاب.. بشجاعة عيسى محمد سيف.. بلوحات عبدالجبار نعمان.. بأستاذية عبدالعزيز عبدالغني.. بيسارية عبدالفتاح إسماعيل.. بثقافية سمير اليوسفي.. بكاريكاتور رشاد السامعي.. باستديوهات العبسي.. بمخابز الشيباني.. بحلويات القبيطة.. بفدائية سعيد فارع «إبليس».. بساعة الرحمن لمُنى علي.. إنها الحجرية.. ألمان اليمن بلا منازع. وإن شئت قل: الحُجريّة روحُ اليمن.

قائمة المصادر والمراجع

١. الإرهاب الحوثي سيرة ومسيرة، مشاهد من فصول الإرهاب الإمامي في اليمن، د. ثابت الأحمدي، مركز نشوان الحميري للدراسات والإعلام، ط:١، فبراير، ٢٠٢١م.

٢. البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذارى المراكشي، أبو عبدالله محمد بن محمد، تحقيق ومراجعة: ج. س. كولان، إ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت ــ لبنان، ط:٣.

٣. التاريخ السري للثورة اليمنية، اللواء عبدالله جزيلان، منشورات العصر الحديث، ط:٣، ١٩٨٧م.

٤. جازم الحروي صانع تحول، بلال الطيب، مركز نشوان الحميري للدراسات والإعلام، ط:١، يناير ٢٠٢١م.

٥. الجامع.. جامع شمل أعلام المهاجرين المنتسبين إلى اليمن وقبائلهم، محمد عبدالقادر بامطرف، دار الرشيد للنشر، د. ت.

٦. جسر الوجدان بين اليمن والسودان، نزار عبده غانم القرشي، ط:١، صنعاء، ١٩٩٤م.

٧. جمهرة أنساب العرب، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد ابن حزم الأندلسي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط:١، ١٩٨٣م.

٨. حرب الشائعات.. الإمامة الهادوية في اليمن تاريخ من الافتراء، د. ثابت الأحمدي، مركز النهضة اليعربية.

٩. الحوثيون الظاهرة الحوثية دراسة منهجية شاملة، د. أحمد محمد الدغشي، مكتبة خالد بن الوليد، دار الكتب العلمية، د. ط.

١٠. دور اليمنيين السياسي في الأندلس، كارم محمود إسماعيل، رسالة

ماجستير، الجامعة الأردنية، كلية الدراسات العليا، ١٩٩١م.
١١. فتوح مصر وأخبارها، أبو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله بن عبدالحكم، تقديم وتحقيق: محمد صبيح.
١٢. قضايا يمنية، عبدالله البردوني، ط:٥، ٩٦م.
١٣. لمحات من تاريخ حركة الأحرار اليمنيين، علي محمد عبده، المعهد الفرنسي للآثار والعلوم الاجتماعية ومنتدى النعمان الثقافي للشباب، ط:١، يناير، ٢٠٠٢م.
١٤. المجد والألم ما ذا يعني انتمائي لليمن، د. ثابت الأحمدي، مركز نشوان الحميري للدراسات والإعلام بالتعاون مع وزارة الإعلام والثقافة والسياحة، ط:١، ٢٠٢١م.
١٥. مذكرات أحمد محمد نعمان سيرته حياته الثقافية والسياسية، مراجعة وتحرير: د. علي محمد زيد، مكتبة مدبولي، ٢٠٠٣م.
١٦. معجم البلدان، إبراهيم أحمد المقحفي، دار الكلمة للطباعة والنشر، صنعاء، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، ٢٠٠١م.
١٧. نعمان الصانع الأول لقضية الأحرار، محمد محمود الزبيري، الاتحاد اليمني، د. ت.
١٨. الهجرات اليمنية عبر التاريخ إلى منطقة شرق أفريقيا، العزي الصلوي، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء.
١٩. يوم ولد اليمن مجده ذكريات عن ثورة ٢٦ سبتمبر، عبدالغني مطهر، د، د.

دوريات

- صحيفة الشرق الأوسط اللندنية، العدد: ١٤٩١٦ الاثنين - ١ صفر ١٤٤١ هـ - الموافق ٣٠ سبتمبر ٢٠١٩م.

- التقرير النهائي لفريق الخبراء المعني باليمن في مجلس الأمن، على الرابط: https: / /undocs.org /ar /s/ ٢٠٢٠/ ٧٠/ Corr.١

- محمد عبدالواسع الأصبحي يتذكر، الحلقة ٢٦، على الرابط: https: / / www.yemeress.com /algomhoriah/ ٢٠٥٤٤٩

الموضـــــــــوع	الصفحة
تقــديم	9
المقدمة	13
المعافر.. الجغرافيا	17
المعافر.. التاريخ	19
المنصور بن أبي عامر المعافري	21
الهجرات اليمنية.. لمحة تاريخية	27
الإمامة والتهجير	29
الهجرة اليمنية في القرن العشرين	43
مهن شاقة ومعاناة مضاعفة	65
المهاجرون في المنافي.. تحديات وإبداع	79
المال في موكب النضال	83
حزب الأحرار	84
الجمعية اليمانية الكبرى	87
جازم الحروي.. المال والقضية	91
أحمد عبده ناشر العريقي	95
عبدالغني مطهر	98
محمد عبدالواسع سلام «الخويل»	100
مشيخة آل نعمان	102
نعمان.. نزاهة مالية ونباهة سياسية	104
الحجرية.. عروق التاريخ وروح الجغرافيا	107
الحجرية.. عطاء مستمر	113
قائمة المصادر والمراجع	117

تم بحمد اللّه

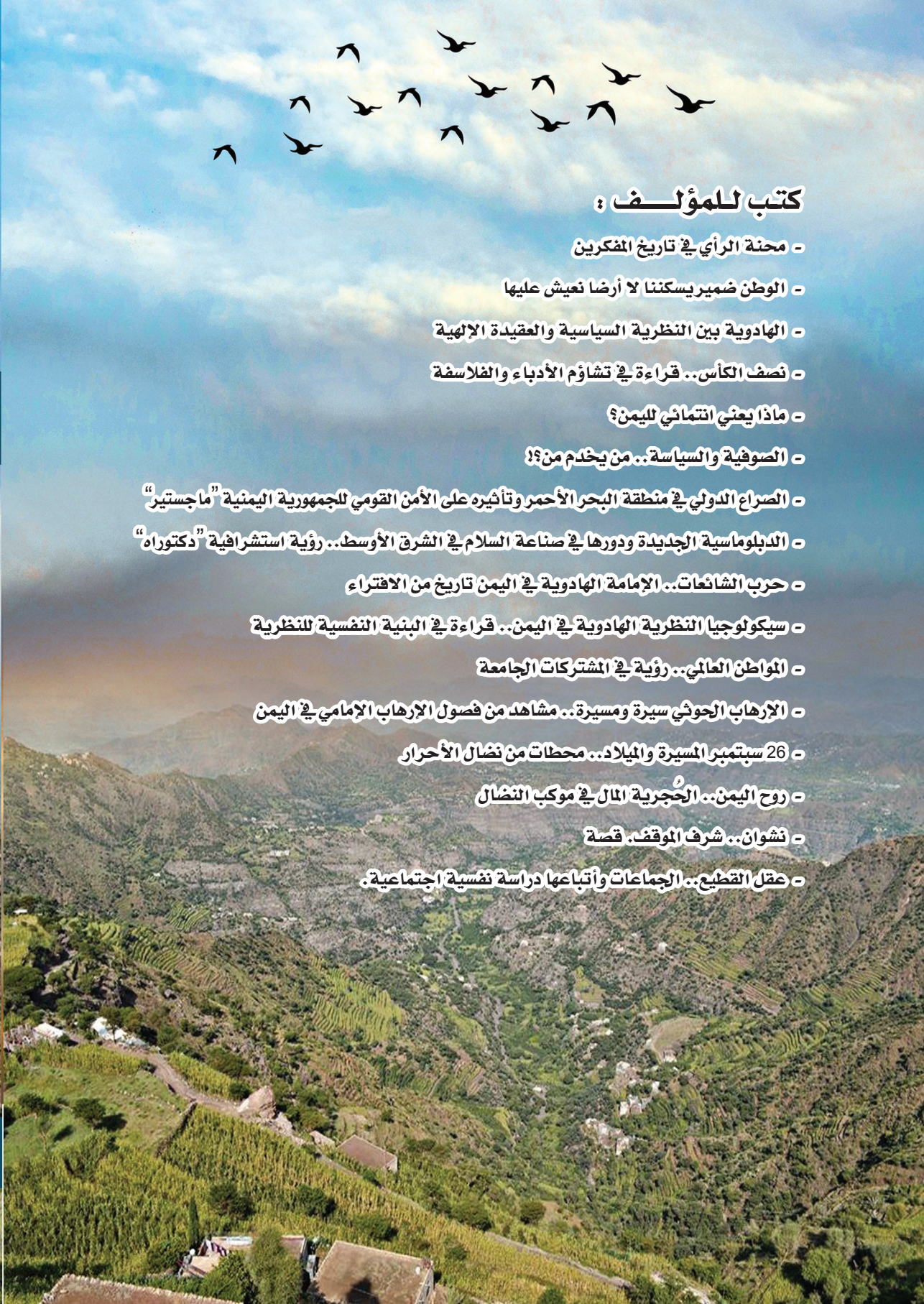

كتب للمؤلـــف :

- محنة الرأي في تاريخ المفكرين
- الوطن ضمير يسكننا لا أرضا نعيش عليها
- الهادوية بين النظرية السياسية والعقيدة الإلهية
- نصف الكأس.. قراءة في تشاؤم الأدباء والفلاسفة
- ماذا يعني انتمائي لليمن؟
- الصوفية والسياسة.. من يخدم من؟!
- الصراع الدولي في منطقة البحر الأحمر وتأثيره على الأمن القومي للجمهورية اليمنية "ماجستير"
- الدبلوماسية الجديدة ودورها في صناعة السلام في الشرق الأوسط.. رؤية استشرافية "دكتوراه"
- حرب الشائعات.. الإمامة الهادوية في اليمن تاريخ من الافتراء
- سيكولوجيا النظرية الهادوية في اليمن.. قراءة في البنية النفسية للنظرية
- المواطن العالمي.. رؤية في المشتركات الجامعة
- الإرهاب الحوثي سيرة ومسيرة.. مشاهد من فصول الإرهاب الإمامي في اليمن
- 26 سبتمبر المسيرة والميلاد.. محطات من نضال الأحرار
- روح اليمن.. الحُجرية المال في موكب النضال
- نشوان.. شرف الموقف. قصة
- عقل القطيع.. الجماعات وأتباعها دراسة نفسية اجتماعية.